بسم الله الرحمن الرحيم

و به أستعين

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد فهذا (الجزء الثانى) من قصص الأنبياء ويشمل (أولى العزم من الرسل) وهم :

نوح ، وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلوات الله عليهم وقد خصصنا لهم هذا الجزء إظهاراً لفضلهم ، وعملا بقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ البقرة

أى يقول الله تعالى ذكره : هؤلاء رسلى فضلت بعضهم على بعض فكلمت بعضهم ، والذى كلمته منهم : موسى بن عمران ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ النساء ، ورفعت بعضهم على بعض درجات بالكرامات والمعجزات ورفعة المنزلة

فأتى الله عيسى بن مريم الحجج والبراهين الدالة على نبوته من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وما أشبه ذلك ، مع الانجيل الذى أنزله اليه،وأيده وقواه وأعانه بروح القدس، وهو جبريل لقوله تعالى :

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ البقرة

ورفع درجة سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم فوق درجة النبيين وأرسله الى الناس كافة ؛ لقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سبأ

وجعله سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، واختتمت به الرسالة ، فلا يأتى نبى بعده لقوله صلى الله عليه وسلم : « لانبى بعدى »

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : بعثت الى الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب فان العدو ليرعب منى على مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلى ، وقيل لى : سل تعطه ، فاختبأتها شفاعة لأمتى، فهى نائلة منكم إن شاء الله من لايشرك بالله شيئاً »

وختاماً أرجو الله أن ينفعنا ببركتهم ، ويهدينا للعمل بسنتهم ، والسير على طريقتهم ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائه ؛ إنه السميع المجيب ؟

السيد على فكرى

مصر الجديدة — الأمين الأول

فى يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢ — لدار الكتب المصرية

أول فبراير سنة ١٩٣٤ — ورئيس المغيرين

٣ – قصة سيدنا نوح عليه السلام

أرسل الله سبحانه وتعالى نوحًا عليه السلام الى قومه ، لينذرهم ويخوفهم عاقبة تماديهم فى الباطل ، ويأمرهم بترك عبادة الأصنام التى كانوا يعبدونها ، وهى حجارة يصنعونها بأيديهم ، وأخذ يبين لهم أنها حجارة لاتضر ولا تنفع ، ولا يليق بهم أن يعبدوها ويذلوا أنفسهم لها ، وهم عقلاء مفكرون، وذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ نوح

وقال لهم: اعبدوا الله وخافوه وأطيعوه يغفر لكم ذنوبكم كما قال تعالى:

﴿ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاُتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ نوح

ويبقيكم الى أقصى ماقدره لكم من بقاء فى هذا العالم كما قال تعالى :

﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاء لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ نوح

وأخذ يدعوهم ليلا ونهارا وهم يفرون منه

وكان كلما ينصح لهم ينفرون منه ، ويعرضون عنه ، ويضعون

أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا ، ويغطون وجوههم بثيابهم كراهة النظر اليه ، وأصروا على كفرهم ، وتكبروا عن سماع نصيحته ، وذلك قوله :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلَّا فِرَاراً . وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ نوح

وقال: لقد حاولت اقناعهم على وجوه شتى فدعوتهم جهاراً بغير تحفظ، ثم أعلنت لهم وأسررت اليهم القول إسرارا كما قال تعالى حكاية عنه :

﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ نوح

وقلت لهم : اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ وتوبوا اليه فانه غفور رحيم يقبل توبة من تاب وأناب اليه كما قال تعالى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ نوح

ولأنه يرسل المطر عليكم هطالاً ليسقى به زرعكم ونباتكم ، ويمددكم بالأموال والبنين، ويجعل لكم أنهاراً و بساتين ، فمالكم لاترعون طاعته وتعظيمه وتوقيره ؟ يثبت ذلك قوله تعالى :

﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً مَالَكُمْ لَاتَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ نوح

وقد خلقكم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما لحماً فتبارك الله أحسن الخالقين

لقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ أى طوراً بعد طور من مادة صماء الى بشر سوى

ثم ذكرهم بعظمة قدرة الله وشديد بطشه وقوته، فقال لهم : انظروا كيف خلق الله سبع سموات بعضها فوق بعض وجعل فيهن قمراً وشمساً لانارة الكون وحياته ؟ لقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ نوح

ثم ذكرهم بأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقهم من تراب الأرض ثم يعيدهم فيها ثم يخرجهم منها لقوله تعالى :

﴿ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ نوح

ثم بين لهم عظمة الخالق جلت قدرته ، وقال لهم : هو الذى جعل لكم الأرض مبسوطة تمشون وتمرحون فيها ، وتتقلبون عليها ، لتخترقوا منها طرقاً واسعة متفرقة لقوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾
أى طرقاً واسعة
نوح

وكان نوح عليه السلام يدعوهم لطاعة الله وعبادته ، ويذكرهم بكل هذا فى مجالسهم وبيوتهم وهم يعصونه ، ولم يفدهم نصحه ، فقال فى دعائه : رب انهم عصونى واتبعوا رؤساءهم الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ومكروا مكراً عظيماً ، وعكفوا على عبادة أصنامهم الموروثة عن آبائهم وهى المذكورة فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ نوح

ولقد أضلت هذه الأصنام كثيراً من الناس فلم تزد الظالمين إلا ضلالاً حتى استحقوا من الله أشد العقوبات فى الحياة الآخرة لقوله تعالى :

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ نوح

ومن أجل خطيئاتهم هذه أغرقهم الله بالطوفان ، فادخلوا ناراً ولم تغن عنهم الأصنام التى كانوا يعبدونها من عذاب الله شيئاً

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ

اللهِ أَنْصَاراً ﴾ نوح

ثم قال نوح داعياً ربه : لاتترك على الأرض من الكافرين الضالين أحداً

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَاتَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾

أى واحداً نوح

فانك ان تتركهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجرا كثير الكفران والجحود مثلهم

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ نوح

ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات بالرحمة والغفران قائلا :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ نوح

ثم دعا على الظالمين بالهلاك قائلا :

﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً ﴾ أى هلاكا ودمارا — نوح

واستمر نوح على هذه الحال الف سنة إلا خمسين عاماً لقوله تعالى :

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾ العنكبوت

ثم أوحى الله الى نوح لما حقَّ على قومه القول ، وأظلهم أمر الله أنه

أن لن يؤمن يانوح بالله وحده ويتبعك على ماتدعوه اليه من قومك ، إلّا من قد آمن ، فصدق بذلك واتبعك ، فلا تحزن بما كانوا يفعلون ، ولا تأسف على ضياع مجهودك الطويل ، فهو عند الله محفوظ ، لأن الله لايضيع أجر العاملين

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ هود

فانى مهلكهم ومنقذك منهم ومن اتبعك

ثم أمره أن يصنع الفلك ، وهو السفينة تحت رعايته وبوحى منه ، ولا يشفع فى الذين ظلموا أنفسهم من قومه ، فانهم محكوم عليهم بالغرق بالطوفان

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ هود

فأخذ نوح يصنع السفينة كما أمره الله ، وكلما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه سخروا منه هزؤاً ويقولون له : أتحولت نجاراً بعد النبوة وتعمل السفينة فى البر ؟ فيقول لهم نوح : ان تسخروا منا أى ان تهزءوا بنا اليوم ، فانا نهزأ بكم فى الآخرة ، كما تهزءون بنا فى الدنيا ، سوف تعلمون أيها القوم اذا جاء أمر الله بالهلاك مَن يأتيه عذاب يخزيه ويهينه ويحل به عذاب دائم لا انقطاع له ؟

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ هود

ولما أتم نوح صنع السفينة ، وجاء أمر الله الذى وعده أن يجىء قومه من الطوفان الذى يغرقهم ، فتفجرت ينابيع الأرض وأمطرت السماء مدراراً ، وفار التنور ، أى القدر الساخن المملوء بالماء الذى جعل الله فورانه بالماء آية مجىء العذاب لهلاك قوم نوح

ثم قال الله لنوح : احمل فى السفينة من كل زوجين اثنين ، يعنى ذكراً وأنثى ، واحمل أهلك أيضا فى الفلك ماعدا الذى قلت إنى مهلكه مع من أُهْلِك من قومك ، وكذا احمل من آمن وهم عدد قليل

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ هود

فحملهم نوح فى السفينة، وقال لهم : اركبوا فيها على بركة الله ، فانها ستجرى بسم الله ، وترسو بسم الله ، فبسم الله يكون مجراها ومرساها فان ربى غافر الذنب ، وقابل التوب ، رحيم فلا يعذب بعد التوبة من تاب اليه

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ هود

وصارت السفينة تجرى بهم ، أى بنوح ومن معه فيها، فى موج كالجبال ، وقد تخلف ولده (يام) وكان فى معزل عن والده فلم يركب السفينة ، فنادى نوح ابنه قائلا له : يابنى اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ هود

فأجابه قائلا : سآوى إلى جبل يعصمنى وأتحصن به من الماء فيمنعنى من الغرق

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ هود

فقال نوح لابنه : لامانع اليوم من أمر الله إلَّا من رحمه الله ، ولا نجاة من عذابه، فانه هو الذى يمنع من يشاء من خلقه، ويعصم من يشاء ، وحال بين نوح وابنه موج الماء فغرق ، فكان ممن أهلكه الله بالغرق من قوم نوح عليه السلام

﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ هود

ثم قال الله تعالى للأرض ، بعد مانفذ أمره فى هلاك قوم نوح بما

أهلكهم به من الغرق : يأرض اشربى ماءك ، ويا سماء كفى عن المطر وأمسكى ، فشربت الأرض الماء وجفت، ومضى أمر الله بهلاك قوم نوح ، واستوت السفينة ورست على جبل بناحية الموصل أو الجزيرة يقال له (الجودى) وقيل : أبعد الله القوم الظالمين الذين كفروا بالله من قوم نوح ، وكان جزاءهم الغرق عقوبة من الله لهم فى الدنيا ثم مصيرهم الى النار فى الآخرة

﴿ وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾هود

ثم نادى نوح ربه فقال : يارب إنك وعدتنى أن تنجينى من الغرق والهلاك وأهلى أيضاً، وقد غرق ابنى، وابنى من أهلى، وان وعدك الحق الذى لاخلف له،وأنت أحكم الحاكمين ، فاحكم لى بأن تفى لى بما وعدتنى به من أن تنجى لى أهلى وترجع الىَّ ابنى

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ هود

فقال الله لنوح : يانوح ان الذى أغرقته الذى تذكر أنه من أهلك ليس هو من أهلك الذى وعدتك أن أنجيهم ؛ لأنه كان لدينك مخالفاً وبى كافراً ، وكان عمله هذا عملا غير صالح

﴿ قالَ يانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ هود

والآن وقد أخبرتك عن سؤالك سبب هلاك ابنك الذى أهلكته فلا تسألنى بعدها عما قد طويت علمه عنك من أسباب أفعالى وليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، أى تبلغ الجهالة بك الظن ألَّا أفى لك بوعد وعدتك حتى تسألنى ماليس لك به علم

﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ هود

فقال نوح عليه السلام مستغفراً من زلته فى مسألته التى سألها ربه فى ابنه : يارب إنى أستجير بك أن أتكلف مسألتك ماليس لى به علم مما قد أحطت بعلمه وحدك منفرداً عن خلقك ، فاغفرلى زلتى فيما سألتك فى ابنى ، وإن أنت لم تغفرها لى وترحمنى فتنقذنى من غضبك أكن من الخاسرين

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ هود

ثم قال الله لنوح : أنزل من الفلك الى الأرض بسلام منا أنت ومن معك وبركات (خيرات) وزيادات فى الرزق والنسل عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم ممن معك سنمتعهم فى الحياة الدنيا ثم

يمسهم منا عذاب أليم

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هود

وكان هبوط نوح من السفينة يوم عاشوراء

روى ابن جرير الطبرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فى أول يوم رجب ركب نوح فى السفينة فصام هو وجميع من معه ، وجرت بهم السفينة ستة أشهر فانتهى ذلك الى المحرم فرست السفينة على الجودى (يوم عاشوراء) فصام نوح وأمر جميع من معه فصاموا شكراً لله ، ولما هبط نوح ومن كان معه فى السفينة قسم ثلاثا على بنيه الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ، لكل منهم ثلثها ، قال تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ الصافات

وقد قيل : ان نوحا عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة ، وقد انتشر نسله عليه السلام من عهده الى وقتنا هذا ولذا سمى (أبا البشر الثانى)

صفات سيدنا نوح عليه السلام

سمى نوحاً لكثرة نوحه على نفسه ، وكان أول نبى من أنبياء الشريعة المطهرة ، وأول داع الى الله تعالى ، وأول نذير عن الشرك ، وأول من عذبه قومه لردهم دعوته ، وأهلك أهل الأرض كلهم بدعائه

وكان عليه السلام أطول الأنبياء عمراً ، وقيل أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين

وجعل معجزته فى نفسه ؛ لأنه عمّر ألف سنة ولم ينقص له سن ، ولم تنقص له قوة ، ولم يبالغ أحد من الرسل فى الدعوة مثل مابالغ

وكان يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، واعلاناً وسراً ، ولم يلق نبى من أمته من الضرب والشتم وأنواع الأذى والجفاء مثل مالاقى نوح عليه السلام ، فلذلك قال الله تعالى :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ النجم

وجعل ثانى المصطفى فى الميثاق والوحى قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾ الأحزاب

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ النساء

وهو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد محمد صلى الله عليه وسلم

وأول من أعطاه الله علم الفلك وصنعته وحفظه بما فيه، وأجراه فوق الماء وسماه شكوراً فقال تعالى:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ الإسراء

ولقد أكرمه الله بالسلامة والبركة فقال تعالى:

﴿يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ هود

وجعل الله ذريته هم الباقون فى الأرض بعد مهلك قومه، وترك له ذكراً جميلا فيمن تأخر بعده من الناس يذكرونه به؛ لأنه من عباد الله المؤمنين به وقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ الصافات

وهو عليه السلام معصوم، ولم يصدر منه مايخالف العصمة.

أما دعاء ربه نجاة ابنه من الغرق ، فكان ذلك منه للاستعاذة وطلب المغفرة ولاذنب ولامعصية لأنه معصوم ، أما قول الله تعالى له :

﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ هود

فهو من باب التحذير فقط لانسبة الجهل اليه ، وانه أتى ذنبًا بسؤاله ربه نجاة ابنه شفقة عليه؛ لأن استعاذة الأنبياء وطلبهم الغفران ودعاءهم كل ذلك من قبل اظهار العبودية لمالك الملك الكبير المتعال

١٦ — قصة ابراهيم الخليل عليه السلام

سيدنا ابراهيم، هو خليل الله عليه الصلاة والسلام ابن (آزر) ويتصل نسبه (بسام) بن نوح عليـه السلام ، وكان أبوه نجاراً ينحت الأصنام ويبيعها ممن يعبدها ، أما ابراهيم عليـه السلام فقد أنار الله بصيرته وهداه الى الرشد ، فعلم أن الأصنام لاتبصر شيئًا، ولا تسمع نداء، ولا تجيب دعاء ، ولا تضر ولا تنفع ، وأنها مثل الخشب الذى تصنع منه ، وأن أباه هو الذى يصنعها ، ورأى أن أهله وقومه يعبدونها من دون الله ، فشرع فى أن ينهاهم عن عبادتهـا ويستهزئ بهم ، وأن يقيم عليهم الحجة فى توحيـد الله وعبادته ، ودعا أباه الى دين الله

فقال لأبيه وقومه : ماهذه التماثيل التى أنتم على عبادتها مواظبون ؟

قالوا : وجدنا آباءنا يعبدونها فحذونا حذوهم فى عبادتها

قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاهَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ . قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ . قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ الأنبياء

فاستبعدوا أن يبلغ الأمر بابراهيم أن يحكم عليهم بضلالهم وضلال آبائهم ، فقالوا له : أتقول ذلك جدًّا أم هزلا ؟ قال : بل جئتكم بالحق لا اللعب ، ربكم رب السموات والأرض الذى خلقهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ، فاياه فاعبدوا لاهذه التماثيل

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ . قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ الأنبياء

فأقسم ابراهيم بالله قائلا : لا والله لأكسرن أصنامكم بعد أن تذهبوا الى عيدكم . فدخل الى هيكلهم فحطم آلهتهم قطعًا عدا أكبرها حجمًا فقد تركه حتى اذا رجعوا اليه بالسؤال عمن فعل ذلك ؛ وقالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ؟ ردهم الى سؤال آلهتهم لتجيب إن كانت تملك الكلام

قال تعالى : ﴿ وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ . فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ . قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ . قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ الأنبياء

وأراد ابراهيم بهذه الطريقة أن يفهم القوم مركز آلهتهم ويقيم

لهم الحجة عمليًا على أنها لايمكن أن تلحق بهم أذى اذا تركوا عبادتها أو تكسبهم خـيرًا اذا عبدوها ، لأن البرهان العملى أوقع فى النفس من غيره

ثم قالوا لابراهيم : أأنت صنعت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ؟ قال : لا . بل فعله كبيرهم هـذا ، وأشار الى الصنم الأكبر الذى تركه سليمًا . وقال : فاسألوهم ان كانوا ينطقون ؟

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيم . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ الأنبياء

فلما سمعوا هذا القول من ابراهيم عليه السلام رجعوا الى صوابهم ونظر بعضهم الى بعض فقالوا : انكم معشر القوم لظالمون لهذا الرجل فى مسألتكم إياه ، وعرفوا أن آلهتهم لاتضر ولا تنفع ، ولا تدفع ولا تبطش ، ولا تتكلم فتخبر من صنع هذا بها، فنكسوا رءوسهم اعترافا باقامة الحجة عليهم من ابراهيم ، ثم عادوا فانقلبوا الى المجادلة بالباطل وقالوا له : لقد علمت أن هؤلاء الأصنام لاينطقون

قال تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ الأنبياء

فقال لهم ابراهيم : أفتعبدون أيها القوم مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؟ وهأنتم أولا قد علمتم أنها لم تمنع نفسها ممن أرادها بسوء ولم تقدر أن تنطق إن سُئلت عمن يمسّها بسوء فتخبر به ؟ قبحاً لكم وللآلهة التى تعبدونها من دون الله ! فهلا تعقلون ذلك وتتركون عبادتها وتعبدون الله الذى فطر السموات والأرض والذى بيده النفع والضر ؟

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ الأنبياء

فلما عجزوا عن مجادلته فى الحق ، ولم تصادف موعظته منهم قلوباً واعية، وأذناً صاغية ، عمدوا الى اتخاذ سلاح القوى الجبار الذى لاحق معه إزاء المحق الضعيف ، فقال بعضهم لبعض : حرقوا ابراهيم بالنار وانصروا آلهتكم إن كنتم ناصريها حقاً . فأوقدوا ناراً عظيمة وألقوه فيها

قال تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ الأنبياء

فنجاه الله منها وقال : يانار كونى برداً وسلاماً على ابراهيم ، فلم تصبه بسوء باذن الله ولم تؤثر فيه مطلقاً ، فلما رأى قوم ابراهيم هذه المعجزة آمن به بعضهم وأصر الباقون على كفرهم وعنادهم

وأرادو به كيداً فأهلكهم الله وجعلهم من الأخسرين الهالكين

قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ الأنبياء

ونجى الله ابراهيم ولوطاً من أعدائهما (النمرود وقومه) فنقلهما من أرض العراق الى أرض الشام وهى الأرض المباركة التى بارك الله فيها للعالمين ، فنزل ابراهيم عليه السلام بفلسطين ، ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة ليلة

قال تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء

١ — مجادلة ابراهيم عليه السلام لأبيه وقومه

ان قوم ابراهيم كانوا يعبدون الأصنام ينحتونها ويسمونها بأسماء الكواكب كالشمس والقمر ونحوهما ، فأراد ابراهيم أن يبين لهم أن الكواكب والشمس والقمر لاتصلح لأن تكون آلهة تعبد من دون الله . وإنما الإله الذى يعبد هو الذى خلقهن وخلق السموات والأرض وبيده ملكوت كل مافيهما فقال ابراهيم لأبيه (آزر): ياأبت أتتخذ الأصنام آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين بعيدين عن الحق

وقد أراه الله ملكوت السموات والأرض ، أى عجائبهما وبدائعهما وأسرار الربوبية فيهما ليستدل بهما على وجود بارئهما ويكون من أصحاب اليقين

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام

فلما ستره الليل بظلامه رأى كوكبًا ، وكان قومه يعبدون الكواكب، فأراد أن يرشدهم الى الله من طريق الحس والنظر والاستدلال . فقال: هذا ربى . فلما غاب . قال : لا أحب الغائبين فما بالك بعبادتهم ؟

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ الأنعام

فلما طلع القمر قال : هذا ربى . فلما غاب،قال : لئن لم يهدنى ربى اليه لأكونن من الضالين ، أى من القوم الذين أخطأوا الحق فلم يصيبوا الهدى وعبدوا غير الله

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ الأنعام

ولما رأى الشمس طالعة قال : هذا الطالع ربى . هذا أكبر من الكواكب والقمر ، فلما غابت الشمس قال ابراهيم لقومه : ياقوم إنى برئ مما تشركون ، أى من عبادة الأصنام والكواكب والقمر والشمس

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

الأنعام

فلما تبين لابراهيم عليه السلام الحق وعرفه شهد شهادة الحق، وقال لقومه : ياقوم انى برئ مما تشركون مع الله الذى خلقنى وخلقكم فى عبادته من آلهتكم وأصنامكم (وانى وجهت وجهى) فى عبادتى الى الله الذى خلق السموات والأرض الدائم الذى يبقى ولا يفنى ويحيى ويميت (حنيفًا)أى مستقيما مخلصا، وما أنا من المشركين الذين أشركوا فى عبادة الله غيره ، فلست ممن يدين بدينكم ويتبع ملتكم أيها المشركون .

قال تعالى : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام

فجادله قومه وخاصموه فى توحيد الله وبراءته من الأصنام بقولهم : ان آلهتهم التى يعبدونها خير من إلهه . فقال لهم ابراهيم : أتجادلونى

فى توحيد الله وإخلاص العمل له دون ماسواه ، وقد وفقنى ربى وهدانى الى معرفة وحدانيته وبصرنى طريق الحق ، طريق الهدى والرشاد ، حتى أيقنت ألّا شئ يستحق أن يعبد سواه ، ولا أخاف من آلهتكم التى تدعونها من دونه أن ينالنى منها شئ فى نفسى من سوء ومكروه؛لأنها لاتنفع ولاتضر إلا أن يشاءالله ؛ ولكنى أخاف الله الذى خلقنى وخلق السموات والأرض، فانه القادر العليم بكل شئ الذى وسع كل شىء علماً فلايخفى عليه شىء فى الأرض ولافى السماء ، أفلاتتذكرون وتعتبرون أيها الجهلة فتعقلوا خطأ ما أنتم مقيمون عليه من عبادتكم صورة مصورة ، وخشبة منحوتة، لاتقدر على ضر ولانفع ولاتفقه ولاتعقل شيئاً

قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ الأنعام

ثم قال لهم : وكيف أخاف وأرهب أصنامكم وهم لايضرون ولا ينفعون؟ ولو كانت تنفع أوتضر لدفعت عن نفسها كسرى إياها وضربى لها بالفأس

وكيف أنتم لاتخافون الله الذى خلقكم ورزقكم ؟ وهو القادر على نفعكم وضركم فيما ارتكبتموه من الجريمة الشنعاء ، وهى أنكم أشركتم

بالله مالم ينزل به عليكم حجة ناهضة و برهانًا ، ولم يجعل لكم به عذراً ، فأى الفريقين منا أحق بأن تكون نفسه آمنة مطمئنة إن كنتم تعلمون صدق ما أقول وحقيقة ما أحتج به عليكم ؟

قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الأنعام

وكان فصل القضاء من الله بين ابراهيم خليله عليه السلام و بين من حاجه من قومه من أهل الشرك بالله قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ الأنعام

أى الذين أخلصوا لله كاخلاص ابراهيم عليه السلام لعبادة الله وتوحيده ، ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ، أولئك لهم الأمن الصحيح وهم مهتدون

وكان قول ابراهيم عليه السلام لمخاصميه من قومه المشركين أى الفريقين منا أحق بالأمن والطمأنينة ؟ الذى يعبد ربًّا واحداً مخلصًا له الدين والعبادة ، أم الذى يعبد أربابا كثيرة ؟ هو حجة من الله منحها إياه على قومه فرفع بها درجته عليهم وشرفه بها فى الدنيا والآخرة

فجعله من عباده الصالحين ، فان الله يرفع من يشاء ، ويخفض من يشاء ، حكيم فى رفعه وخفضه ، عليم بحال من يرفعه أو يخفضه واستعداده له

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنعام

٣ — محاورة ابراهيم لأبيه ونصحه له بعبادة الله وترك عبادة الأوثان

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر فى كتاب الله ابراهيم خليل الرحمن فاقصص على هؤلاء المشركين قصصه وقصص أبيه (إنه كان صديقًا) أى من أهل الصدق فى حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب

(وكان نبيًا) قد نبأه الله وأوحى اليه؛واذكره إذ قال لأبيه: ياأبت لِمَ تعبد مالايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئًا ؟ أى كيف تصنع بعبادة الوثن الذى لايضر ولا ينفع ؟

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ مريم

ثم قال له يا أبت إنى قد آتانى الله من العلم مالم يؤتك ، فاتبعنى واقبل نصيحتى أهدك الطريق السوى المستقيم الذى لاتضل فيه إن لزمته ، وهو دين الله الذى لا أعوجاج فيه

قال تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَالَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا ﴾ مريم

يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان عاصيا لله

قال تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ لَاتَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيًّا ﴾ مريم

يا أبت انى أعلم أنك إن مت على عبادة الشيطان يمسك عذاب من الله فتكون مواليا للشيطان و يتبرأ الله منك فتهلك

قال تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ مريم

فقال أبو ابراهيم لابراهيم حينما دعاه الى عبادة الله وترك عبادة الشيطان والبراءة من الأوثان والأصنام : أراغب أنت يا ابراهيم عن عبادة آلهتى وكاره لها ؟ لئن لم تنته عن ذكرها بسوء لأقذفنك بالكلام المؤلم ، و بالسب والقول القبيح ، واهجرنى مليًّا ، أى ابعد من عقو بتى حينًا من الدهر

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ مريم

فقال ابراهيم مودعا أباه بعد أن توعده على نصيحته إياه : سلام عليك ياأبت،وسأستغفر لك ربى، انى عهدته لطيفا بى يجيب دعائى اذا دعوته،وانى لمتجنبكم وما تدعون من دون الله من الأوثان والأصنام، داعيًا ربي باخلاص العبادة له، وافراده بالربوبية، عسى ألّا أكون بدعاء ربى شقيًا،خائبا مثلكم فى دعاء آلهتكم، فانه يجيب دعائى ويعطينى ما أسأله . قال تعالى :

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ مريم

ولما تجنب ابراهيم قومه وعبادة ما كانوا يعبدون من الأوثان، آنس الله وحشته من فراقهم، وأبدله بهم من هو خير منهم، وأكرم على الله، فوهب له ابنهُ اسحٰق، وابن ابنه يعقوب، وجعلهم كلهم أى ابراهيم واسحٰق ويعقوب أنبياء، ووهب لهم من رحمته الحكمة والصلاح، وجعل لهم أُحدوثة عالية بين الناس على توالى الزمان

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ

إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ مريم

فيتضح من ذلك ان ابراهيم عليه السلام كان حليماً ، رقيق القلب عطوفاً ، رءوفاً باراً بوالده مع قسوته عليه ، وانه كلما باعد والده بينه وبينه تلطف هو فى المقاربة ، وترفق فى دعوته وهدايته وتحذيره ؛ ولكن كل ذلك لم يفد لغلبة الشقاء عليه

٣ — تبرؤ ابراهيم من أبيه لكفره بالله

كان ابراهيم عليه السلام قد ظفر بوعد من أبيه أنه سيؤمن به فلهذا استغفر الله له ؛ ولكنه علم بعد ذلك أنه مقيم على دين قومه ، ولا يزال عدواً لله فتبرأ ابراهيم من أبيه وترك الدعاء والاستغفار له ، فكان ابراهيم بدعاء ربه شاكراً له ، وحليما عمن سبه وناله بالمكروه

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ التوبة

٤ — مجادلة ابراهيم لقومه وقوله : انى سقيم

كان ابراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام يسير على منهاجه وملته ، إذ جاء ربه بقلب سليم من الشرك مخلص له التوحيد ، وقال لأبيه وقومه : أى شيء تعبدون ؟ ألا تعقلون أن ماتعبدونه من دون الله هو كذب وباطل ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ ماذا يصنع بكم اذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا ذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الصافات

ولما كان قومه يشتغلون بالتنجيم ، نظر نظرة فى النجوم ليوهمهم انه يتعرف ماسيصير اليه حالهم ، فرأى نجماً قد طلع فعصب رأسه وقال: (انى سقيم) أى مطعون مصاب بالطاعون

وكان قومه يهربون من الطاعون فهربوا منه ،وتركوه فى بيت آلهتهم مخافة أن يعديهم ، فمال الى آلهتهم وقال : ألا تأكلون ؟ فلما لم يرها تأكل ، قال لها : مالكم لاتأكلون ؟ فلم يرها تنطق، فقال لها : مالكم لا تنطقون ؟ مستهزئًا بها

قال تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾

الصافات

فمال عليها وضربها بيده اليمنى بفأس ليكسرها ، فرجع اليه قومه يسرعون ، فقال لهم : أيها الحمقى : أتعبدون ما تنحتونه بأيديكم وأدواتكم من الأصنام ؟ والله خلقكم والذى تعملونه من الأصنام ، وهو الخشب والنحاس والأشياء التى كانوا يستعملونها فى نحت الأصنام

قال تعالى : ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الصافات

فتآمروا عليه وقالوا : ابنوا لابراهيم بنيانا — قيل انه بنوا له بنيانا يشبه التنور (الفرن) ثم نقلوا اليه الحطب وأوقدوا فيه وألقوه فى النار وأرادوا حرقه ؛ ولكن الله (حافظه من كل سوء) أهلكهم وجعلهم الأسفلين الأذلين ، ورد كيدهم فى نحورهم .

ولما نجاه الله قال لهم : انى ذاهب حيث أمرنى ربى (الى أرض الشام) لأتجرد وأفرغ فيه لعبادته انه سيهدينى ويعيننى على ذلك

قال تعالى : ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فى الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا

بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

الصافات

مجادلة أخرى لابراهيم مع أبيه وقومه

ومن أنباء ابراهيم عليه السلام أنه قال لأبيه وقومه : أى شىء تعبدون ؟ فقالوا : نعبد أصناما فنبقى مواظبين على عبادتها وخدمتها . فقال لهم : هل هؤلاء الآلهة تسمع دعاءكم إذ تدعونهم ؟ أو تنفعكم هذه الأصنام فيرزقونكم شيئا على عبادتكم لها ؟ أو يضرونكم فيعاقبونكم على ترككم عبادتها بأن يسلبوكم أموالكم أو يهلكوكم ويهلكوا أولادكم ؟ قالوا : هكذا وجدنا من قبل آباءنا يعبدونها ، ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها ، فنحن نفعل ذلك اقتداءً بهم واتباعا لمناهجهم وخطتهم

قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاتَعْبُدُونَ قَالُوانَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ الشعراء

فقال لهم ابراهيم : أفرأيتم أيها القوم ما كنتم تعبدونه من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فانهم أعدائى وأنا برىءٌ من عبادتهم

ولا أعبد سوى رب العالمين ، الذى خلقنى ويهدينى بفضله ويسددنى للرشاد ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، ويهيئ لى مقومات الحياة من طعام وشراب، ويرزقنى الأرزاق ، وهو الذى يشفينى اذا مرضت واذا اعتل جسمى فهو يبرئه ويعافيه . وهو الذى سيميتنى عند انقضاء أجلى، ثم يحيينى للحساب والثواب،وهو الذى أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين (يوم القيامة)

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

الشعراء

وهذا الكلام من ابراهيم احتجاج على قومه أنه لاتكون العبادة إلا لمن يفعل كل هذه الأفعال ، لالمن لاقدرة له على ذلك ولا يرجى منه نفع ولا ضر

ثم بعد هذا الاحتجاج تضرع الى ربه وسأله أن يهب له كمالا فى العلم والعمل ليستعد به للقيام بأعباء الرسالة ، وأن يلحقه بالصالحين من

رسله ، وأن يجعل له فى الناس ذكراً جميلا وثناء حسنًا باقيًا ، وأن يجعله من ورثة جنة النعيم

قال تعالى : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ الشعراء

ثم طلب الصفح والمغفرة لأبيه لأنه كان من المشركين الضالين ، كما أنه طلب لنفسه أن لايخذله ولا يذله يوم البعث والنشور ، أى يوم يبعث الناس من قبورهم لموقف القيامة (هـذا اليوم المشهود) الذى لاينفع فيه مال ولا بنون للدفاع عن العقاب من الله والنجاة منه إلا من أتى الله وقلبه سليم من الشرك مخلص له فى العبادة

قال تعالى : ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء

رحلة ابراهيم الى فلسطين ثم الى مصر

لما تبرأ ابراهيم من أبيه ولم يطب له المقام بين أهله وقومه ذهب أولا إلى (أور الكلدانيين) ثم الى (حاران) ورحل بعد ذلك الى فلسطين ومعه زوجه السيدة (سارة) وابن أخيه لوط ومع لوط زوجه ، وهم الذين آمنوا با براهيم كما قال تعالى :

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العنكبوت

وسكن فى تلك الأنحاء، وكانت أرض الكنعانيين ؛ ولكنه لم يطل به المقام فانتقل الى مصر، وذلك فى عهد ملوك الرعاة (وهم العماليق)

ولما سمع فرعون مصر بأن السيدة سارة زوجة ابراهيم الخليل الطاهرة المصونة من أجمل النساء، أرسل الى ابراهيم عليه السلام. فلما جاء قال : ماهذه المرأة منك ؟ فخاف ابراهيم إن قال له إمرأتى أن يقتله ليتزوج منها فقال له : هى أختى (يريد أخته فى الاسلام) فأتى سارة وقال : ياسارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك، وأن هـذا الجبار سألنى عنك فأخبرته إنك أختى فلا تكذبينى. فأرسل اليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ ووقفت يده، فقال : ادعى الله لى ولا أضرُّك. فدعت الله فأطلق يده. ثم تناولها الثانية، فأُخذ مثلها أو أشد، فقال : ادعى الله لى ولا أضرُّك، فدعت فأطلق فدعا بعض حجابه فقال : انكم لم تأتونى بانسان إنما أتيتمونى بشيطان صرعنى مرتين، فوهب لها (هاجر) لخدمتها.

وكانت (هاجر) بنت ملك من ملوك القبط، فأتت سارة ابراهيم

عليه السلام وهو قائم يصلى، فأشار بيده اليها ماشأنك ؟ فقالت سارة : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره ولم يظفر منى بشىء

وكانت (سارة) زوج ابراهيم عليه السلام عاقراً لا تلد ، وتألمت إذ لم تجد لابراهيم ولداً ، وهى قد شاخت ولا يرجى لها أن تكون أمًّا ، فاتفقت معه على أن يتزوج من (هاجر) فدخل بها وأتت منه بغلام (هو اسماعيل عليه السلام) ثم رزقت سارة باسحٰق عليه السلام كما سبق فى قصتهما

بيان الثلاث كذبات التى نسبت لابراهيم عليه السلام

لم يكذب ابراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات (وهى ليست من الكذب الحقيقى بل فى صورة الكذب وكلها فى الله تعالى) الأولى : قوله لقومه : إنى سقيم . أراد به سقم النفس مما رآه من ضلالتهم

الثانية : قوله لهم حينما سألوه عمن كسر الأصنام : بل فعله كبيرهم أى كبير الأصنام قال ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء والتبكيت . وهذا لايعد كذبًا حقيقيًا

الثالثة : قوله لفرعون الجبار حينما سأله عن سارة زوجته : هى أختى ويريد أخته فى الدين وليس هذا كذبًا ؛ وهذه الثلاث كذبات

واردة فى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه

والنتيجة أن ابراهيم عليه السلام ماقال كذبا ؛ لأنه نبى معصوم صادق فى قوله وفعله، مؤيد بقول الله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴾ مريم

محاجة ابراهيم للملك

لما كان قوم ابراهيم يعبدون ملوكهم مع آلهتهم أحب ملكهم « النمروذ » أن يرجع ابراهيم عن شريعته الجديدة المخالفة لشريعة قومه ، وأن يعبده وآلهته فقال له :

يا ابراهيم من ربك الذى بعثك وتدعو الى عبادته وتذكر عظمته وقدرته؟

قال ابراهيم عليه السلام : ربى الذى يحيي ويميت

قال النمروذ : أنا كذلك أحيي وأميت، إنى أستبقى من أريد وأقتل من أريد

فقال له ابراهيم : إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب

فتحير النمروذ ولم يحر جوابا ولزمته الحجة ، والله لايهدى أهل الكفر إلى حجة يُدحِضُون بها حجة أهل الحق عند المخاصمة والمحاجة

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

البقرة

ابراهيم والملائكة وتبشيره باسحٰق

ان ابراهيم عليه السلام كان يحب إكرام الضيف ، فدخل عليه ضيوف (من الملائكة) فظنهم آدميين فحياهم بالسلام كما حيَّوه ، فقدم اليهم طعاما عجلا سمينًا بعد أن ذبحه وسواه فى النار وجاء به اليهم فأمسكوا عن أكله ، ولما رآهم لم يأكلوا منه ولم تمتد اليه أيديهم ارتاب فى شأنهم وأوجس منهم خيفة ، فخاطبهم فى ذلك فعلم أنهم ملائكة وهدأوا روعه وبشروه بغلام عليم وهو (اسحٰق عليه السلام)

قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ

مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ الذاريات

فأقبلت إمرأته سارة فى صياح ولطمت وجهها متعجبة وقالت : كيف ألد وأنا إمرأة عجوز عقيم لاتلد ؟ فقالوا لها : كذلك قال الله وقدر إنه هو الحكيم العليم

قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ (أى فى شدة الكرب) فَصَكَّتْ (لطمت) وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ الذاريات

ثم التفت اليهم ابراهيم وقال لهم : ماشأنكم الذى جئتم له أيها المرسلون ؟

قالوا : إنا أرسلنا الى قوم لوط لنسقط عليهم حجارة من طين معلمة عند ربك للمتجاوزين حدود الله فى التعدى الكافرين به من قوم لوط، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، أى من قرية (سدوم) وهى القرية التى يسكنها قوم لوط فى مكان (البحر الميت) المعروف (ببحر لوط)

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات

وقد خاف ابراهيم من العذاب النازل أن يمس ابن أخيه لوطا فقال

لهم : ان فيها لوطا ؛ فقالوا له : نحن أعلم بمن فيها، وأنه وأهله من الناجين

وقد أخبر ابراهيم ، بأن وقوع العذاب بقوم لوط أمر محتم لاتقبل فيه شفاعة ، ولا يفيد عنه جدال

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ هود

سؤال ابراهيم لربه رؤية احياء الموتى

لما كان ابراهيم عليه السلام مؤمنا بالله و بالبعث والنشور ، وأن الله يحيي الموتى ويحشرهم ليوم لاريب فيه ، ليجازى المحسن باحسانه ، والمسيء بإساءته ، أراد أن يزداد يقيناً وإيماناً ، فسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، فقال له : أولم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، من غير شك فى الله تعالى ولا فى قدرته

فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير فيقتلها ، ويفرق أجزاءها على الجبال ، ثم يدعوها ، فانه سيجدها آتية اليه ، فحينئذ يكون قد رأى الميت قد عاد حيًّا . فأخذ أربعة من الطير فقتلها ، وفرق أجزاءها على الجبال ثم دعاها فعادت اليه صحيحة كأنها لم تذق للموت طعمًا

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة

وعدت هذه من المعجزات التى منحها الله لسيدنا ابراهيم عليه السلام وأكرمه بها

ابراهيم أسوة حسنة للمؤمنين

يقول الله تعالى للمؤمنين به من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى ابراهيم خليل الرحمن تقتدون به والذين معه من أنبياء الله

إذ قالوا لقومهم : إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله من الالهة والأنداد، لقد أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله، وجحدنا عبادتكم وما تعبدون من دون الله أن تكون حقاً ، وظهر بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبداً على كفركم بالله وعبادتكم ماسواه ، ولا صلح بيننا حتى تؤمنوا بالله وحده

لقد كانت لكم أيها المؤمنون أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه من الأنبياء فى كل هذه الأمور ، إلا فى أمر واحد ، وهو قول ابراهيم

لأبيه (لأستغفرن لك) لأن ذلك كان من ابراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله تبرأوا من أعداء الله المشركين به، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرأوا من عبادة ماسواه ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء

وقوله لأبيه : وما أملك لك من الله من شيء ، أى لايمكننى أن أدفع عنك من الله من عقوبة عاقبك بها على كفرك به ، ولا أغنى عنك شيئًا

ولقد قال ابراهيم والأنبياء الذين معه صلوات الله عليهم : ربَّنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ورجعنا بالتوبة مما تكره الى ماتحب وترضى ، واليك مصيرنا ومرجعنا ، يوم تبعثنا من قبورنا وتحشرنا يوم القيامة فى الموقف العظيم

وقولهم أيضا : ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا بك وعبدوا غيرك بأن تسلطهم علينا فيروا أنهم على حق وأنا على باطل ، فتجعلنا بذلك فتنة لهم ، واغفر لنا ذنوبنا بعفوك ياربنا إنك أنت العزيز الحكيم

لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى ابراهيم والذين معه من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم لمن كان منكم يرجو لقاء الله وثواب الله والنجاة فى اليوم الآخر ، فمن يتول عما أمره الله به وأعرض عنه

وأدبر مستكبراً ووالى أعداء الله ، وألقى اليهم بالمودة، فان الله غني عن ايمانه به، وطاعته إياه ، وعن جميع خلقه، وهو الحميد الذى له الحمد والثناء

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ الممتحنة

العبرة فى قصة ابراهيم عليه السلام

١ — إنه كان مؤمناً بالله حق الايمان ، وكان جريئاً فى الحق ، ولذا لم تأخذه فى الله لومة لائم ، وقام بتكسير الأصنام وجعلها قطعاً ، وترك كبيراً لهم وجعله وسيلة لمحاجّتهم حتى أفحمهم ، ولما ضاقوا به ذرعاً ألقوه فى النار وهو لم يعبأ بهم ، ولم يخف منهم ، وكانت النار عليه برداً

وسلاماً (وهذا من المعجزات التى أوحى الله اليه بها)

٢ – و إنه لم يدخر وسعاً فى ابتكار أساليب الدعاية الى الحق وتوحيد الله ، فتارة يلجأ الى النجوم علّه يجد فيها أدلة إقناع ، فلما أفهمهم أن كواكب السماء كلها لاتصلح أن تكون آلهة تعبد جهر بأمره قائلا : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾ الأنعام

٣ – إنه كان يجادل الملك (النمروذ) و يحاجه غير هيَّاب ولا وجل ، حتى ألزمه الحجة وألبسه الخزى

٤ – إنه تبرأ من والده لكفره ؛ ومع ذلك كان رقيق القلب واسع الصدر طويل البال متواضعاً لأبيه حينما قال له أبوه :

﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ مريم

فأجابه بقوله : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ مريم

وقوله : ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ الشعراء

(وسمى ابراهيم) ومعناه الأب الرحيم

٥ – إنه كان كريماً لضيوفه ، بدليل أنه ذبح لثلاثة أضياف عجلا

سميناً حفاوة بهم مع أنه كان يكفيهم الشىء القليل ، وهو أول من أضاف الضيف

٦ ـ إنه كان محباً للاستطلاع ، والوقوف على حقائق الأمور ، والوقوف على دقائق صنع الله تعالى، ولذلك طلب من الله أن يريه احياء الموتى ليطمئن قلبه

٧ ـ إنه كان قائما على قدم الاستعداد لتنفيذ أوامر ربه فيما أحب أو كره ، بدون تبرم أو تذمر ، متحليا بالتقوى والطاعة ، والشكر والصبر . ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة

ولذا اصطفاه الله فى الدنيا وجعله فى الآخرة من الصالحين ، فهو أبو الأنبياء وتاج الأصفياء

قال تعالى : ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ البقرة

٨ ـ وأما صبره على المكاره ، واتباعه أمر ربه ، فيتجلى فى تقديمه ولده اسماعيل عليه السلام ليذبحه بيده ويقربه قربانا لله تعالى ؛ وسبق ذكر هذه المسألة فى قصة اسماعيل عليه السلام فى الجزء الأول

١٥ — قصة موسى الكليم عليه السلام

١٦ — وقصة هرون عليه السلام

(لارتباطها بها)

موسى عليه السلام هو ابن عمران، بن قاهت، بن لاوى، بن يعقوب عليه السلام ، وقد أرسله الله لهداية فرعون وقومه حينما طغى وبغى وادعى الألوهية ، وعبده الناس خوفا منه وكان يقول لهم : أنا ربكم الأعلى . وذلك أنه لما علا فرعون فى الأرض ، وبغى ، وجعل أهلها فرقا أخذ يذبح أبناء طائفة منهم ، ويستحى نساءهم ويعذب طائفة ثالثة ويستعبد طائفة رابعة؛ لأنه كان من المفسدين . وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ القصص

والسبب الذى حمله على ذلك أنه رأى فى المنام ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى وصلت الى بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط ، وتركت بنى اسرائيل ؛ فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن تأويل رؤياه، فقالوا له يخرج من هذا البلد الذى جاء منه بنو اسرائيل (أى بيت

المقدس) رجل يكون على يديه هلاك مصر وملكها ، فأمر فى بنى إسرائيل ألا يولد لهم غلام إلَّا ذبحوه ، ولا تولد لهم جارية إلّا تركت ؛ وقال للقبط : انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم ، واجعلوا بنى إسرائيل يقومون بتلك الأعمال القذرة، فجعلوا بنى إسرائيل فى أعمال غلمانهم ، وأدخلوا غلمانهم

ولكن الله جلت قدرته أراد أن يحبط عمل فرعون ويذله ، ويجعل الذين استضعفهم وهم بنو إسرائيل ولاةً وملوكاً ، ويجعلهم الوارثين لآل فرعون ، يرثون الملك من بعد مهلكهم ويمكن لهم فى الأرض بالشام ومصر

ويُرِى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يتوقعونه من هلاكهم وخراب منازلهم ودورهم ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ القصص

ولادة موسى وإرضاعه

وفى هذا العهد ولد موسى بن عمران عليه السلام ، فأوحى الله الى أمه أن ترضعه ، فاذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده أن تلقيه

فى اليم (فى النيل) و بشرها ألَّا تخـاف ولا تحزن لفراقه ، فان الله سيرده اليها ، ويجعله رسولا من عنده الى هذا الطاغية لهلاكه ونجاة بنى إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه ، لقوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ القصص

فدعت أم موسى نجاراً فصنع له تابوتا ، وجعل مفتاح التابوت من داخله ، ووضعته فيه وألقته فى اليم كما أمرها الله ، فالتقطه آل فرعون وأخذوه ، وأدخلوه بيت فرعون ظنًا منهم أن فيه مالًا

فلما فتحته (آسـية) إمرأة فرعون وجدت به صبيًا ، فلما نظرت اليه أخذتها الشفقة والرحمة فأحبته وسمته موسى ، لأنه وجد بين المـاء والشجر ، والماء بلغتهم (المو)و (سا) الشجر ،فسمى بصفة المكان الذى وجد فيه (موسى)

ولمـا أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه ، فلم تزل (آسية) تكلمه حتى تركه لهـا ، وقال : إنى أخاف أن يكون هـذا الصبى من بنى إسرائيل ، وأن يكون هذا على يديه هلاكنا ، ويكون عدواً لنا فى ديننا ، وحزنا علينا بما ينالنا منه من المـكروه ، ولذا قال الله تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ القصص

أى ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وكافرين بربهم فلذلك كان لهم موسى عدواً وحزناً

وقالت إمرأة فرعون له : هـذا قرة عين لى ولك يافرعون ، فلا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وهم لايشعرون ، أنه سيكون سبب هلاكهم ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَاتَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ ﴾ القصص

وأصبح قلب أم موسى فارغا من كل شىء إلّا من همّ موسى خوفا على ابنها من وقوعه فى يد فرعون فيذبحه ، وأنها كادت تبدى خوفها عليه وتقول : يا ابناه لولا أن الله عصمها وثبت قلبها وأسكت لسانها لتكون من المؤمنين بوعد الله الموقنين به ، لقوله تعالى :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ القصص

وقالت أم موسى لأخته (مريم) حـين ألقته فى البحر ، اقتفى أثره ، وتتبعى خـبره ، عن بعد ، بحيث لايشعرون بك أنك أخته .

لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص

ولما امتنع موسى عن الرضاعة من ثدى المراضع التى أحضرت اليه ، ورأت أخته إعراضه وامتناعه عن الرضاعة منهم ، قالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، ويشفقون عليه ، ويقومون بخدمته ، ويكونون له من الناصحين فى أمر تدبيره وتربيته ؟

فلما قالت لهم ذلك أخذوها وقالوا : إنك قد عرفت أهل هذا الغلام فدلينا على أهله . فقالت : ما أعرفهم ، وإنما أردت أن يكونوا ناصحين وحريصين على مسرة الملك ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ القصص

فأمروها ، فأحضرت أمها ، فلما حملته أقبل على ثديها بشغف ورغبة فبذلك تحقق وعد الله لأمه ، وأرجعه اليها لتقر عينها به ، وتسر ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ، وإن كان أكثر الناس لا يصدقون ذلك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ القصص

تربية موسى فى بيت فرعون

بعد أن أتمت أم موسى رضاعته أتت به الى بيت فرعون ، فأكرمته (آسية) إمرأة فرعون وفرحت به ، وأبقته عندها ، فتربى تربية كما كانوا يربون أبناء الملوك فى ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال الدين بحسب التقاليد المرعية فى تلك الأيام ، حتى بلغ أشدّه فكان يركب مراكب فرعون ، ويلبس كفرعون ، وكان يدعى أنه (موسى بن فرعون)

ولما بلغ موسى غاية نموه ، واشتد ساعده وقواه ، واستوى جسماً وعقلاً ، وتم خلقه واستحكم ، وبلغ أربعين سنة (وقال بعضهم ثلاثين سنة) آتاه الله الحكمة ، وطرق الحكم ، والعلوم الدينية ، والسياسية ، وكذلك يجزى الله المحسنين من عباده كما جازى موسى على طاعته وإحسانه ، لقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴾ القصص

خروج موسى من مصر الى أرض مدين وسببه

لما خرج موسى من مصر حتى دخل (منف) وقت الظهيرة والناس قائلون أى (نائمون وقت القيلولة) لايتوقعون حضوره فى هذا

الوقت ، وهم فى غفلة عنه ، وكانت الأسواق مقفلة ، والطرق خالية
وجد رجلين يتقاتلان، أحدهما اسرائيلي من أهل دينه يقال له(السامرى)
والآخر قبطى مصرى من آل فرعون يقال له (فاتون) لأن القبطى
أراد تسخير العبرانى فى حمل حطب الى مخبزه ، فاستغاث العبرانى
بموسى ، فجاء الى المصرى ووكزه وكزة كانت القاضية عليه ، وهو
لايريد قتله ؛ ولكن هكذا أراد الله فواراه التراب ودفنه ، ولم يعلم
بذلك الأمر سوى الرجل العبرانى الذى نصره موسى ، وندم موسى
على مافعل وقال فى نفسه : هذا الفعل من عمل الشيطان إنه عدو مضل
مبين للانسان ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ
يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ
شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ القصص

ودعا موسى ربه مستغفراً أن يتوب عليه ، وقال : رب إنى ظلمت
نفسى بقتل النفس التى لم تأمرنى بقتلها ، فاعف عن ذنبى واستره على

ولا تؤاخذنى به فتعاقبنى عليه . فعفا الله لموسى عن ذنبه ولم يعاقبه به ، لأنه غفور يغفر الذنب لمن تاب وأناب اليه ، رحيم بالناس لايعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ القصص

ثم تضرع موسى الى الله وقال : يارب بانعامك على بعفوك عن قتل النفس فلن أكون بعد اليوم معينا للمجرمين ، ولا أعين ظالما على فجوره وظلمه ، لقوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ القصص

ففى اليوم الثانى خرج موسى الى المدينة وهو خائف من القصاص به ، مترقب الأخبار عن أمره وأمر القتيل الذى قتله ، فرأى الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس على الفرعونى يقاتله فرعونى آخر ، فلما رآه الإسرائيلى استصرخه ، واستغاث به ثانية ، فقال له موسى : إنك أيها الرجل لضال ظالم مبين ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ ﴾ القصص

فظن الإسرائيلى أن موسى غير ناصره ثُمَّ دفعته الحمية على عدو القبطى وأراد أن يبطش به ؛ لأنه أغلظ له الكلام فنهاه موسى فقال له : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ؟ ما تريد إلاّ أن تكون جباراً فى الأرض من الجبابرة السفاكين للدماء وما تريد أن تكون من المصلحين ، لقوله تعالى :

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ القصص

فانطلق القبطى الذى كان يقاتل الاسرائيلى إلى قومه ، فأخبرهم بما سمعه من الإسرائيلى ، وقال : إن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس

فلما علم فرعون بخبره أرسل الذباحين لقتل موسى ، فأخذوا الطريق الأعظم وهم لا يخافون أن يفوتهم ، وكان رجل من شيعة موسى فى أقصى المدينة فأسرع واختصر طريقا قريباً حتى سبقهم إلى موسى وأخبره : إن الجماعة يأتمرون على قتله ، ونصح له أن ينجو بنفسه ، ويغادر مصر حتى لا تمتد إليه أيديهم بسوء ، وذلك قوله تعالى :

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾. القصص

فقبل موسى هذه النصيحة الغالية ، وخرج من مصر (مدينة فرعون) خائفا يترقب أن يلحقه القوم فيقتلوه ، فتضرع إلى ربه قائلا : رب نجنى من القوم الظالمين ؛ لقوله تعالى :

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . ﴾ القصص

ولما توجه تلقاء مدين ماضياً إليها ، فراراً من الذباحين ، متوكلاً على رب العالمين ، شاخصاً عن مدينة فرعون ، خارجاً عن سلطانه قال فى نفسه : عسى ربى أن يهدينى ويبين لى قصد السبيل إلى (مدين) لقوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ القصص

دخول موسى أرض (مدين) ونزوله بها

(مدين) هى البلاد التى إختارها موسى وقصدها للنزول بها ، وهى على مسيرة ثمان ليال من مصر ، وهى شرقى شبه جزيرة سينا ، وخليج العقبة ، وشمال الحجاز ، وجنوب فلسطين وتنسب إلى مدين بن ابراهيم عليه السلام

فما وصل إليها إلاَّ بعد تعب شديد وجوع ، ولم يكن له طعام سوى ورق الشجر، وقيل: انه خرج من مصر حافياً فما وصل إلى (مدين) حتى وقع خف قدمه من كثرة السير الحثيث المتواصل . فلماورد ماء (مدين) وجد جماعة من الناس يسقون مواشيهم وغنمهم ، ووجد دون هؤلاء إمرأتين تحبسان مواشيهما عن الناس حتى يفرغوا من سقى مواشيهم فقال موسى لهما، لما رأى من ضعفهما وغلبة الناس على الماء دونهما : ماشأنكما ؟ لماذا لا تسقيان مواشيكما مع مواشى الناس ؟ فقالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء مواشيهم ؛ لأننا لا نقدر على مزاحمتهم ، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على المجىء ، ولا يمكنه أن يباشر أمر الرعى والسقى ، فنحن ننتظر الناس حتى إذا فرغوا سقينا ثم انصرفنا ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ القصص

فرق موسى لهما ، وأظهر العطف عليهما ، وأخذ دلوهما وتقدم إلى السقاء بفضل قوته وجهده، فزاحم القوم على المـاء حتى أخرهم عنه ، ثم سقى لهما ماشيتهما ، ثم رجع إلى الشجرة التى كان جالساً تحتها واستظل بظلها وقال : يا رب إنى إلى برِّك وعطفك محتاج، فقير إلى ماتنزله علىّ من خير قال ذلك لأنه كان فى تعب وفى شدة الجوع ، ولم يكن معه طعام

وذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ القصص

ورجعت المرأتان إلى أبيهما قبل الناس ، فقال أبوهما : ما أعجلكما ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً فرحمنا وسقى لنا . فقال لإحداهما : (وهى التى تزوجته فيما بعد) إذهبى فادعيه ، فجاءته وهى تمشى على استحياء ومستترة بكم قميصها ، وواضعة يدها على وجهها ، وقالت له فى تواضع وأدب : إن أبى يدعوك ليعطيك أجر ما سقيت لنا . فأجاب الدعوة وسارت أمامه ، وهو خلفها ، فهبت الريح فكشفت عن ساقيها ، فغض بصره ، وقال لها : إمشى خلفى ، وإذا أنا أخطأت السير فارمى حصاة تدلنى على الطريق ، فانا من أبناء يعقوب لا ننظر إلى النساء الأجنبيات ، فسارا كما قال ، حتى دخلا على أبيهما ، فسأله أبوها عن خبره ، فقص عليه خبره كله ، فقال له : لا تخف قد نجوت من القوم الظالمين ، بفضل الله ورحمته ، وأخبرت أباها بقوله : اننا لا ننظر إلى النساء الأجنبيات ؛ وفى ذلك يقول الله تعالى ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص

زواج موسى بإحدى الإبنتين

قالت إحداهما لأبيها (وهى التى ذهبت إلى موسى وجاءت به) : يا أبت استأجره ليرعى ماشيتك ، إن خير من استأجرت الرجل القوى الأمين، الذى لاتخاف خيانته فيما تأمنه عليه منها، و يقوم بخدمتها خيرقيام ، وهذان الشرطان اللذان يجب توافرهما فى العامل

قالت ذلك عن مشاهدة وعلم ، حيث رأت قوته فى مزاحمة النـاس وسقى ماشيتهما، وأمانته فى غض الطرف عن النظر إليها حينما كشفت الريح عن ساقيها ، وحينما قال لها : كونى وأنا أمامك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ القصص

فسرّ أبوها من موسى عليه السلام ، وازداد حبًّا فيه ، وقال له : إنى أريد أن أزوجك إحدى إبنتى هاتين على أن تعمل عندى ، وتقوم على شئوون بيتى ثمان سنين ، فإن أتممتها عشراً فمن عندك تفضلاً من غير إلزام ولا قهر فى هاتين السنتين ؛ بل هو تبرع منك إن شئت أقمتهما ، و إن شئت تركتهما ، وما أريد أن أرهقك ، وأشق عليك ، وأحملك مالا طاقة لك به باشتراط الثمانى السنوات عشراً ، فإنك ستجدنى إن شاء

الله من الصالحين فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بما قلت وذلك قوله تعالى :

﴿ قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ القصص

قال موسى عليه السلام : هذا عهد وشرط بينى و بينك ، أن أقضى أى الأجلين ثمان سنين أو عشراً ، فلا عدوان علىّ بإلزامى بإتمام العشر فتطالبنى بأكثر منه ، والله علىّ شهيد وحفيظ على ما تقول ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَىَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ القصص

ومن هذا الوقت صار موسى صهراً لذلك الشيخ ، وراعياً لغنمه ، بعد أن تربى على العز والنعيم فى بيت فرعون ، مفضلا هذه الحياة الخشنة البريئة الشريفة عن حياة الكفر والظلم

وذكر أكثر المفسرين أن إسم إبنة الشيخ التى صارت زوجاً لموسى (صفورا)

وقال أغلب المفسرين : ان هذا الشيخ هو (شعيب عليه السلام)

بدليل أن رسالته فى مدين كانت قبل أن يخرج موسى من مصر ، وأهلك الله الظالمين منهم ؛ وبقى شعيب ومن آمن معه حتى وصل موسى عليه السلام مدين فوجد شعيباً شيخاً كبيراً ، و بعضهم يقول : ان صاحب موسى هو (يثرون) أو (يثرى) والله أعلم

خروج موسى من مدين إلى مصر بأهله

وما لاقاه من الشدّة ومبدأ الرسالة

لما أتم موسى عليه السلام تسع سنين قائما بشئون بيت شعيب عليه السلام وهب له شعيب نتاج السنة العاشرة من الغنم ، يريد بذلك مبرّة موسى ومعاونته وصلة إبنته (صفورا) إمرأة موسى ، فكان نتاج هذه السنة عظيماً ، وعلم شعيب أنه رزق ساقه الله تعالى إلى موسى وأهله وولديه (إبنى صفورا)

فلما أتم السنة العاشرة إستأذن موسى شعيباً فى الانصراف من مدين والذهاب إلى مصر ، فأعطاه عصاً ذات شعبتين فى رأسها ومحجن فى طرفها وسلم إليه الأغنام وسار موسى بأهله منفصلا عن أرض مدين متجنباً طريق المدن والعمران لئلا يعلم به الناس فيصل خبره إلى فرعون وكان أكبر همه أن يدرك أخاه هارون ويخرجه من مصر

و بينما موسى يرعى غنمه ومعه امرأته ضل الطريق وكان فى الشتاء

فى ليلة باردة وأراد أن يورى ناراً فقدح زنده فلم يأت بنار فاشتد به الأمر وأخذ يبحث عن نار ويتسمع لعله يجد انسانا يدله ، حتى رأى ضوء نار من بعيد فقال لأهله : امكثوا هنا إنى رأيت ناراً وسأذهب لعلى آتيكم بقبس منها تستدفئون به ، أو أجد من يهدينا الى مكانها ، وذلك قوله تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ طه

فلما قرب موسى من النار وجد النار فى شجرة عليق، وأن النار لا تطفأ، والعليقة لا تشتعل،ولم يجد أحداً من الناس يسأله عن الطريق

وبينما هو على هذا الحال إذ سمع صوتا من وسط النار يناديه (نداء وحى لانداء كلام) انى أنا ربك ، وأمره بخلع نعليه لأنه بالوادى المقدس طُوًى ، حتى تمس قدماه تلك الأرض المقدسة المباركة الطاهرة ، وليكون على أكمل هيئات التواضع بين يدى ربه ، فخلع نعليه ورمى بهما بعيداً ، وهو فى أشد حالات الخوف والوجل والهيبة من ربه

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَامُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ طه

وقيل: ان هذه الليلة هى الليلة المباركة التى أراد الله بموسى كرامته

وابتداءه فيها بنبوته ورسالته وكلامه بدليـل أنه قال له : إنا اخترناك فاجتبيناك لرسالتنا الى من نرسلك اليه، فاستمع لوحينا الذى نوحيه اليك واجعل أذنك واعية له ، واعمل به إننى أنا الله المعبود الذى لاتصلح العبادة إلَّا له ، فلا تعبد غـيرى ، وأخلص العبادة لى دون سواى ، وأقم الصلاة لتذكرنى فيها ولا تغفل عن ذكرى

﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ طه

ثم قال له : إن الساعة التى يبعث الله فيها الخلائق من قبورهم لموقف القيامة آتية لاشك فيها ، و إنى أخفيها عن الناس فلا أذكرها لهم، لئلا يطلع عليها أحد غيرى ، ولكى تجزى كل نفس بما تعمل من خير وشر وطاعة ومعصية ، فلا يردنك ياموسى عن التأهب والاستعداد لتلك الساعة من لايؤمن بها ، ولا يصدق بالبعث والنشور بعـد الممات ، ولا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، وقد اتبع هواه وخالف أمر ربه ونهيه ، و إلا فتقع مثله فى الردى فتهلك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ طه

معجزتا العصا واليد

ثم سأله الله سبحانه وتعالى مع علمه بما فى يده ، ماهذه التى فى يمينك ياموسى ؟

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ﴾ طه

فقال موسى مجيبا لربه : هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى وأضرب بها الشجر اليابس ، فيسقط فترعاه الغنم ، ولى فيها حاجات ومنافع أخرى ، فأحمل عليها الزاد والسقاء والكساء فاستظل بها من حرِّ الشمس

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ طه

وأراد الله أن يعرفه قدرته على ما يشاء وعظم سلطانه فقال له : ياموسى ألق عصاك التى بيمينك

فامتثل أمره وألقاها على الأرض ، فجعلها الله حيَّة تسعى وتمشى بعد أن كانت خشبة يابسة لاتتحرك من تلقاء نفسها

فلما رآها موسى تهتز كأنها جان أو شيطان تولاه الفزع والخوف وولى مدبرا ولم يرجع ؛ فناداه الله : أقبل ياموسى ، لاتخف سنعيدها إلى حالتها وهيئتها الأولى التى كانت عليها ونردها عصا كما كانت

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ طه

ثم قال له : ضع يدك تحت إبطك تخرج بيضاء من غير سوء لامرض ولا برص فيها

فكان ذلك علامة ودلالة أخرى غير الآية التى رآها موسى من قبل ، وهى تحويل العصا الخشبية الى حيّة تسعى ، بل هى من الأدلة الكبرى على قدرة الله وعظيم سلطانه

«وكانت العصا واليد معجزتين من معجزات الله لموسى عليه السلام»

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ طه

عودة موسى الى مصر ودعوته لفرعون الى توحيد الله و إبلاغ رسالته

ثم أمر الله موسى بأن يذهب الى فرعون حيث طغى وتجاوز حده ، وتمرد على ربه ليدعوه الى توحيد الله وطاعته

﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ طه

فتضرع موسى الى ربه وقال : يارب اشرح لى صدرى لأعى

ماتودعه من وحيك فيه، وأجترىء به على مخاطبة فرعون ،وسهل عليّ القيام بما تكلفنى به من الرسالة، وتحمّلنى من الطاعة ، واطلق لسانى بالمنطق الكافى، والبيان الشافى ، وفك عنى العقدة التى أمسكت بلسانى حتى يفقهوا و يفهموا قولى وكلامى لهم ، واجعل لى عونًا وسنداً من أهل بيتى (أخى هارون) اشدد بهأزرى ، وقو به ظهرى ، وأشركه معى فى مهمتى ورسالتى الى فرعون فنسبح بحمدك، ونعظمك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، فانك بصير بنا، لايخفى عليك شىء من أفعالنا

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ طه

فأجاب الله سؤاله،وأخذ يذكر له منن الله عليه

فقال الله تعالى لموسى عليه السلام : قد أعطيت ماسألت ربك ياموسى، من شرح صدرك ، وتيسيره أمرك ، وحل عقدة لسانك، وجعل أخيك هارون وزيراً لك، ليشد أزرك ويشترك فى الرسالة معك ، ولقد مننا عليك بمنة أخرى ، وهى المنة التى أوحينا فيها الى أمك حينما ولدتك فى العام الذى كان فرعون يقتل فيه كل مولود ذكر من قومك بأن

تضعك فى التابوت خوفا عليك ، وبأن تقذفك فى البحر حتى اذا ماوصلت الى الساحل أخذك فرعون وهو عدوى وعدوك ، وألقيت عليك محبة منى فحببتك الى عبادى

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَايُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ طه

وكانت أختك تمشى تتبعك تحت رعايتى وبمرأى منى لتقول لهم : هل أدلكم على من يرضعه ويكفله ويقوم بشئونه ويربيه ؟ ثم رددناك الى أمك بعد ماصرت فى أيدى آل فرعون كيما تقر عينها بسلامتك ونجاتك من القتل والغرق فى اليم ، ولكيلا تحزن عليك من الخوف عليك من فرعون أن يقتلك ، وقد نجيناك من الغم بقتلك النفس التى قتلت (وهو قتله القبطى حينما استغاث به الإسرائيلى) إذ أرادوا أن يقتلوك ، فخلصناك منهم حتى هربت إلى أهل مدين فلم يصلوا إلى قتلك ، وابتليناك ابتلاء ، فخرجت خائفًا الى أهل مدين ، فلبثت فيهم عدة سنين ثم جئت فى الوقت الذى أردنا أن نرسلك فيه إلى فرعون رسولا على قدر الرسالة والنبوة

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى ﴾ طه

ويذكره الله بنعمته عليه ويقول: لقد أنعمت عليك ياموسى بكل هذه النعم، ومننت عليك بهذه المنن، حبا منى لك؛ لأنى اخترتك واصطفيتك لابلاغ رسالتى، والقيام بأمرى ونهيى، فاذهب أنت وأخوك هارون بآياتى وحججى إلى فرعون إنه تمرد فى ضلاله وغيه، فأبلغاه رسالتى، ولا تضعفا أمامه، ولا تغفلا عن أن تذكرانى فيما أمرتكما ونهيتكما؛ وقولا له قولا لينا كريما، لعله يتذكر ويراجع نفسه، ويخشى الله فيرتدع عن طغيانه

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ طه

فقال موسى وهارون (بعد أن سمعا أمر ربهما من طريق الوحى): إننا نخاف فرعون إذا نحن دعوناه إلى ما أمرتنا أن يعجل علينا بالعقوبة ويسرف ويفرط فيها، أو أن يزداد فى طغيانه

﴿ قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ طه

فقال الله لهما : لاتخافا فرعون ، إننى معكما أعينكما عليه، وأبصر وأسمع ما يجرى بينكما و بينه، فأعلم محاورتكما له، وأرى ماتفعلانه معه و يفعله معكم فلا يخفى علىَّ شيء من ذلك ، فاذهبا إليه وقولا له : إنا رسولا ربك أرسلنا إليك لنبلغك أمره، بأن ترسل معنا بنى إسرائيل، فأرسلهم معنا ولا تعذبهم بماتكلفهم به من الأعمال الرديئة السيئة، وقد جئناك بمعجزة من ربك على أنه أرسلنا إليك بذلك، فإن أنت لم تصدقنا فيما تقول فنحن مستعدون لأن نظهرها لك، ونطلعك عليها، والسلامة لمن اتبع هدى الله و بيانه

﴿ قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ طه

تذكير فرعون لموسى بتربيته وفضله عليه

لما دخل موسى على فرعون ذكره فرعون أنه رُبِّىَ فى بيته وليداً ولبث فيهم سنين من عمره، وهذا يوجب عليه المحافظة على المودة والحرص على عبادة فرعون ؛ ثم ذكره بفعلته التى فعلها من قتله الرجل القبطى وهربه على أثرها

فرد موسى على هذه المسألة وقال له : إنى فعلتها وحينما كنت صغيراً من الضالين لا أدرك ما أفعل،ففررت منكم لما خفتكم ؛ وقد وهب لى الله حكما وجعلنى من المرسلين ، وفى ذلك قول الله تعالى :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الشعراء

محاجة موسى لفرعون

لما فرغ موسى مما قال وذكر لفرعون أنه يريد إطلاق بنى إسرائيل ليعبدوا الله فى البرية ، ولما كان فرعون رجلا عاتيا متألها ، تدين الأمة المصرية بعبادته ، وقد فاجأه موسى بأمر لايقره ولا يرضاه ، وهو محاولة إنزاله من عرش الربوبية ، أخذ فرعون يحاور موسى ويحاجه ، فسأل موسى مارب العالمين ؟ فأجابه : رب السموات والأرض وما بينهما ، خالق كل ذلك ومبتدعه ، فالتفت فرعون إلى من حوله من أشراف قومه ، مظهراً العجب، قائلا لهم : ألا تستمعون ؟ أسأله عن موصوف،فيجيب بوصف

فاستمر موسى فى كلامه قائلا : ربكم ورب آبائكم الأولين ؛ أى حينما لم يكن فرعون موجوداً ولا معبوداً

فقال فرعون لملائه : إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون ، لأنه جاءنا بشىء لانعرفه ولا نقره

فاستمر موسى فى قوله : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ الشعراء

فلما علم موسى وهارون عدم قبول فرعون الإقلاع عن غيه وتماديه فى ضلاله، وادعائه الربوبية، وأنه مكذب لهما لامحالة ، قالا له :

إنا قد أوحى الينا أن عذاب الله واقع على من كذب بما ندعوه اليه من توحيد الله وطاعته وإجابة رسله ، وتولى وأدبر معرضا عما جئنا به من الحق

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ طه

ثم عاد فرعون فقال لهما مخاطبا موسى : فمن ربكما ياموسى ؟ فأجابه : ربنا الذى أعطى كل شىء فى الوجود مايناسبه من الصورة والشكل ، ثم هداه لطرق معيشته ووسائل بقائه

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ طه

فقال فرعون لموسى : فما شأن الأمم الخالية من قبلنا التى لم تقر بما تقول ، ولم تصدق بما تدعو اليه ، ولم تخلص له العبادة ، ولكنها عبدت الأصنام والأوثان من دونه؟ إن كان الآن على ماتصف من أن الأشياء كلها خلقها ، وأنها فى نعمه تتقلب ، وفى مننه تتصرف

فأجابه موسى فقال : لاعلم لى بأمرها ، وبما كان سبب ضلال من ضل منها فذهب عن دين الله ، لايخطىء ربى فى تدبيره وأفعاله ، فان كان عذب تلك القرون الماضية وعجل هلاكها فنعم مافعل ، وإن كان أخر عقابها إلى يوم القيامة فالحق مافعل ، هو أعلم بما يفعل لايخطىء فى فعله أبداً ، ولا ينسى فعل مافعله حكمة وصواباً

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لَايَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى ﴾ طه

ثم ذكر له قدرة الله وعظيم سلطانه وجليل أعماله قائلاً له : إن الله جعل لكم الأرض بساطا وفراشاً ، وفتح فيها طرقا وسبلا للسعى فيها ، وأنزل لكم من السماء مطراً لتحيا به الأرض،ويخرج منها أزواجا شتى من النبات ، وألوانا تأكلون منهاوترعون أنعامكم ومواشيكم، وكل ذلك آيات وحجج تدل على وحدانيةالله، وأنه لا إله غيره ، وتلك آيات لأولى الفكر والاعتبار وأهل التدبر والاتعاظ

﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِى النُّهَى ﴾ طه

ثم قال له زيادة فى الاحتجاج وتبغيضا له فى الدنيا وتذكيراً له بعقاب الآخرة :

إن الأرض منبتنا الذى أنبتنا الله منه ، وفيها معاد الناس الذى يعودون اليه بعد فناء حياتهم ؛ ومنها يخرجون مرة أخرى للحساب ولمجازاة كل إنسان بما صنع

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ طه

ومع هذه الآيات البينات والحجج القاطعات الدالة على حقيقة

ما أرسل الله به رسوليه (موسى وهارون) كذَّب فرعون وأبى أن يقبل من موسى وهارون ماجاءا به من عند ربهما من الحق عتوًّا واستكباراً وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ طه

كما أن قومه استكبروا عن قبول دعوته لمَّا جاءهم بالحق وقالوا : إن هذا لسحر مبين؛ لأنهم كانوا قوماً مجرمين، قال الله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ يونس

طلب فرعون المبارزة من موسى مع السحرة وانتصار موسى عليهم

ثم قال فرعون لموسى : أجئتنا لتخرجنا من منازلنا ودورنا بسحرك هذا الذى جئتنا به؟ فلنأتينك بسحر مثله ، فاجعل بيننا و بينك موعدا لانتعداه، لنجىء بسحر مثل الذى جئت به، فننظر أينا يغلب صاحبه ؟ لانخلف ذلك الموعد نحن ولا أنت بمكان متوسط ومعتدل بيننا و بينك

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ

بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا انتَ مَكَاناً سُوًى ﴾ طه

فقال موسى لفرعون حين سأله أن يضرب له موعدا للاجتماع : موعدكم يوم العيد (وهو يوم عيد كان فرعون يخرج له ، وكانوا يتزينون فيه بعد انبساط الشمس ليشهدوا مَن الغالب ومَن المغلوب؟)

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ طه

. فلما سمع فرعون هذا الجواب أدبر معرضا عما أتاه به من الحق، وجمع كيده ومكره،أى جمع سحرته ثم أعطاهم تعليماته ، وجاء معهم فى الموعد الذى حدده موسى

﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ طه

فقال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون : الويل لكم!لاتختلقوا على الله كذبًا ، ولا تتقولوا عليه فيسحقكم بعذاب، ويستأصلكم بهلاك فيبيدكم ، وقد خاب من افترى على الله الكذب ، فلم يظفر بحاجته التى طلبها ورجا إدراكها

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ طه

فتنازع السحرة فى أمر موسى، فقال بعضهم : هـذا ساحر ، وقال البعض الآخر : ليس بساحر ، وقرروا فيما بينهم أنهم يتبعونه إن غلبهم وأسروا هذه النية فى أنفسهم ، وأعلنوا الناس بأن موسى وأخاه هارون ساحران، يريدان إخراجكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بمذهبكم الذى هو أعدل المذاهب

﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ طه

فقال لهم موسى : اجمعوا ، أمركم وأحكموا كيدكم ، ثم احضروا صفًا واحداً فقد ظفر اليوم من غلب صاحبه وقهره وعلا على خصمه

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ طه

فأجمعت السحرة كيدهم، ثم أتوا صفًا وقالوا لموسى : ياموسى إما أن تلقى، وإما أن نكون نحن الملقين ؟ قال لهم : بل ألقوا أنتم مامعكم قبلى

فلما ألقوا حبالهم وعصيهم ، فاذا هى فى نظره تشبه حيات قد ملأت الوادى، يركب بعضها بعضا، يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ، فاختطفوا بسحرهم بصر موسى وفرعون، ثم أبصار الناس

﴿ قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾

طه

فلما رأى موسى ذلك هاله أمر تلك الحيات، وأوجس وأضمر فى نفسه خوفا، فأوحى الله إليه بقوله : لاتخف، إنك أنت الأعلى على هؤلاء السحرة، وعلى فرعون وجنوده ، والقاهر لهم، وأمره أن يلقى عصاه بقوله: فألق ما فى يمينك (العصاة) تبتلع حبالهم وعصيهم التى سحروها حتى خيل إليك أنها تمشى ، فإن الذى صنعوه كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث كان وأنى وجد ، ولا يظفر بسحره من أين أتى

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ طه

انتصار موسى واعتراف السحرة به وبأخيه هارون وتهديد فرعون لهم

فلما ألقى موسى عصاه صارت ثعبانا كبيراً ابتلع كل أعمالهم وحبالهم وعصيهم ؛ وبذلك كان الفوز والنصر له ؛ ووقع الحق وبطل سحر السحرة، ودهش آل فرعون والملأ من قومه ، وعلم السحرة أن السحر

لا يفعل ذلك وإنما هى القوة الالٰهية صنعت ذلك ، فخروا لله سجداً، وقالوا : آمنا برب هارون وموسى ؛ لو كان هذا سحراً ماغلبنا قال تعالى:

﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ الشعراء

ولما رأى فرعون الغلبة والنصرة لموسى أسف أسفًا شديداً وتكدر وقال للسحرة : أصدقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم اليه من قبل أن أسمح لكم؟ إنه لرئيسكم الذى علمكم السحر ، فلأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى من خلاف ،ولأصلبنكم على جذوع النخل ،لتعلمن أيها السحرة مَن منا أشد عذابًا وأدوم إيلاما لكم أنا أو موسى ؟

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ طه

فقال السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به : لن نؤثرك فنتبعك، ونكذب من أجلك موسى على ماجاءنا به من الآيات البينة والحجج والأدلة القاطعة، الدالة على حقيقة مادعانا اليه ، ولا نختارك الٰها من دون الله الذى فطرنا وخلقنا، فافعل ما أنت فاعل بنا مما تهددنا به من أنواع التعذيب ، فلا نبالى به مادمنا على الحق ، واعلم بأن هـذه الحياة الدنيا

فانية لاتدوم ، وليس لك سلطان علينا إلّا فيها تتحكم فينا كيف تشاء ولا سلطان لك بعدها

ونحن قد آمنا بربنا وأقررنا بتوحيد الله ، وصدقنا بوعده ووعيده وآمنا بما جاء به موسى، ليغفر لنا ربنا خطايانا ويعفو عن ذنوبنا فيسترها علينا، وما أكرهتنا عليه من السحر فان الله خير ثوابًا وأبقى عقابًا

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَاجَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ طه

تمادى فرعون وقومه وإصرارهم على الكفر

رأى فرعون الآيات فلم يصدق بها ، وتمادى على كفره، وأصر على عناده وطغيانه ، معرضًا عن تلك الآيات التى أتى بها موسى ، وأغراه قومه بقولهم له : أتترك موسى وقومه يفسدون فى الأرض بالامتناع عن الأعمال التى سخروا فيها، ويتركون فرعون وآلهته لايعبدونها ولا يعبدون فرعون ؟

فسكّن فرعون روع القوم ، واعداً إياهم بأن سيقتل أبناء قوم موسى

ويستحيي نساءهم معتزاً بما له عليهم من القهر والغلبة والسلطان

ولما أتبع القول بالعمل ضجَّ بنو إسرائيل وقاموا بالشكوى الى موسى مما حاق بهم، من الظلم والجور، فأوصاهم موسى بالصبر على هذا البلاء النازل بهم وأن يستعينوا بالله على احتماله ووعدهم حسن العاقبة

فلم يخفف ذلك من لوعتهم، ولم يكفكف من دموعهم، وقالوا له :

« أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا »

فأخذ يهدّئ من روعهم، ويخفف من أحزانهم ، ويمنيهم هلاك عدوهم، وإخراجهم من الضيق الى السعة ، وأنهم سيكونون خلفاء فى الأرض التى وعدوا بها ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَاجِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

الأعراف

إيمان طائفة من بنى إسرائيل بموسى ونصحه لهم

بعد هذه المعجزة الربانية، والموقعة السحرية، التى انتصر فيها الحق على الباطل ، لم يؤمن بموسى مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة إلا طائفة من شبان بنى إسرائيل ، على خوف من فرعون وأشراف قومه ، أن يعذبهم فرعون ؛ لأنه متغلب عليهم فى الأرض ، ومن المسرفين فى الكبر والجبروت ، ويحملهم على الرجوع عن إيمانهم والكفر بالله

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ يونس

فقال موسى لهم : ياقوم ، إن كنتم آمنتم حق الإيمان فثقوا بالله واعتمدوا عليه ، إن كنتم مسلمين ، ومذعنين له بالطاعة ، وتوكلوا عليه فلن يخذل من توكل عليه

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ يونس

فقالوا : على الله توكلنا، وبه ثقتنا، واليه فوضنا أمرنا، ثم دعوا الله وقالوا: ربنا لاتجعلنا موضع عذاب للقوم الظالمين ، فيردوننا عن الإيمان بالله ورسوله ، وخلصنا من أيدى القوم الكافرين (قوم فرعون)

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ يونس

وحى الله الى موسى وأخيه باتخاذ بيوتهما بمصر مساجد

فأوحى الله الى موسى وأخيه هارون أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً وأن يجعلوا بيوتهم مساجد يؤدون فيها الصلاة المفروضة عليهم فى أوقاتها ، وأن يبشرا المؤمنين بالفوز فى الدنيا والآخرة

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يونس

وقال موسى لربه : ربنا إنك منحت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم زينة من متاع الدنيا وأثاثها ، وأموالا من أعيان الذهب والفضة فى الحياة الدنيا ليضلوا عبادك عن صراطك المستقيم عقوبة منك لهم

ثم دعا ربه قائلا : ربنا اطمس على أموالهم وامحقها ، واطبع على قلوبهم لكيلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (الغرق) جزاء لهم على تجبرهم فى الأرض ، وتمردهم على رسلك

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ يونس

فأجاب الله دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم ، وأمرهما بالاستقامة والثبات على أمرهما من دعاء فرعون وقومه إلى توحيد الله وطاعته ، إلى أن يأتيهم عقاب الله الذى أخبرهما أنه أجابهما فيه ؛ وأن لايسلكا سبل الجهلة فى استعجال العذاب للمكذبين

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ ﴾ يونس

الدليل على نبوة موسى

وقال الله لموسى : هـذان (العصا واليد) برهانان من ربك إلى فرعون وأشراف قومه حجة عليهم ، ودلالة على حقيقة نبوتك ياموسى إنهم كانوا قوماً كافرين

﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ القصص

فقال موسى : رب إنى قتلت من قوم فرعون نفساً فأخاف أن آتيهم فيقتلونى ، ولا يمكننى أن أقيم الحجة عليهم ؛ لأن فى لسانى عقدة لاأبين معها ما أريد من الكلام ، وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، وأحسن بيانا ، فارسله معى عوناً يبين لهم ما أخاطبهم به ، فانى أخاف أنهم لايصدقون قولى

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ القصص

فقال الله لموسى: سنشد عضدك بأخيك، ونعينك ونقويك، ونجعل لكما حجة دامغة وسلطانًا عليهم ، فلا يصلون اليكما . اذهبا بآياتنا اليهم فأنتما ومن اتبعكما الغالبون

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ القصص

فلما جاء موسى إلى فرعون وقومه بآيات واضحات ، قالوا لموسى : إن الذى جئتنا به ماهو إلا سحر افتريته من قبلك، وما سمعنا بهذا، أى بادعاء النبوة ، فى أسلافنا وآبائنا الأولين الذين مضوا قبلنا

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَاهَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ القصص

فقال موسى لفرعون : ربى أعلم بمن منا المحق من المبطل، وأعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ومَن تكون له حسن العاقبة بعد هذه الحياة الدنيا فى الدار الآخرة، إنه لايفلح الظالمون

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ

تـكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إنَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ القصص

فرعون يدعى الألوهية ويأمر ببناء صرح ليصعد به السماء

وقال فرعون لأشراف قومه وسادتهم ، يأيها القوم لست أعرف لكم إلٰها غيرى فتعبدوه ، وأظنكم لاتصدقون قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم وله إلٰهاً غيرى، ومعبوداً سواى. ثم أمر (هامان) بأن يوقد على الطين ليعمل له الآجر ، ويبنى له قصراً عالياً يصعد فيه الى السماء حتى ينالها ويقول : أنظر الى إلٰه موسى الذى يعبده ويدعو الى عبادته وإنى لأظنه فيما يقول من الكاذبين

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَاعَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْلِى يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِى صَرْحاً لَعَلِّى أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ القصص

ولهذا استكبر فرعون وجنوده فى أرض مصر عن تصديق موسى واتباعه الى توحيد الله بغير الحق إذ ادعى الألوهية، ورفع نفسه الى مستوى ليس لأحد من العالمين أن يطلبه ، وظن هو وجنوده أنهم بعد مماتهم لايبعثون ولايرجعون الى الله، فأخذهم الله أخذاً عزيزاً، وألقاهم جميعاً فى البحر فأغرقهم، وكان ذلك عاقبة الظالمين

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ القصص

الائتمار بموسى لقتله ودفاع مؤمن عنه

انتصاراً لدين الله ونجاتهما من فرعون وقومه

أراد فرعون أن يبطش بموسى ، وتآمر هو وقومه على قتله حتى لايكون منه تبديل لدين القوم أو فساد فى أرضهم ، فاستعاذ موسى بالله من شر هذا المتكبر الظالم الذى لايؤمن بالله ولا بيوم الحساب

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ غافر

ولما كان الحق لايعدم نصيراً ، قام رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه بموسى ورب موسى الى ذلك الحين ، ودافع عن موسى دفاعاً مشكوراً ، وأبلى فى ذلك بلاء حسناً ، وبين لهم أنه لاينبغى أن يقتلوا رجلا يقول : ربى الله ؛ اذا كان قد جاءهم بالآيات الدالة على صدقه ، ولو فرض أنه كاذب فيما يقول ، مانالهم ضرر من كذبه ، ولا

يحملون شيئاً من إثمه ؛ واذا كان صادقا أصابهم بعض الوعيد الذى توعدهم به ، وقد عارضه فرعون فيما رأى ، ووجه أقواله الى الملأ من قومه ينتصر بهم على معارضته قائلا :

ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلاَّ سبيل الرشاد

فعاد الرجل المؤمن من آل فرعون إلى الكلام محذراً قومه بأس الله تعالى ، وذكرهم ماحصل للأمم السابقة،أمم عاد ، وثمود،وقوم نوح، وغيرهم ، ممن انتقم الله منهم جزاء وفاقاً بما صنعت أيديهم ، وذكرهم أيضاً بأن الدعوة التى جاء بها موسى اليوم ليست جديدة ، فقد جاء إلى آبائهم، واليهم ضمنا، يوسف عليه السلام بالبينات فلم ينل تصديقهم إياه ، حتى اذا مات قالوا: لن يبعث الله من بعده رسولا ، وأبان لهم أن ذلك مما طبع الله على قلوبهم ، وإمساكه تعالى عن هدايتهم ، هداية موصلة بالفعل إلى المقصود ، وأن الله تعالى لا يهمل الحسنات ولا السيئات بل يجازى على كل شىء ، وأن المؤمنين لهم الجنات يرزقون فيها بغير حساب

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ

لا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ وَيَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ آتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

***

وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ

أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ غافر

تمادى قوم فرعون فى غيهم

ورغما من هذه النصيحة الثمينة وهذا الدفاع المجيد تمادى قومه في غيهم ، وجهدوا أن يردوه إلى دين قومه ، فلامهم على أنه يريدلهم السعادة، وهم يريدون له الشقاء الدائم، فهو يدعوهم إلى الايمان ، وهم يدعونه الى الكفر بالله تعالى العزيز الغفار ، ولاشك أن الآلهة التى يدعونه إلى عبادتها لاتنفع فى الدنيا ، ولا تشفع فى الآخرة ، وأن المرجع والمصير إلى الله تعالى ، وأنه سيأتى عليهم وقت يذكرون فيه نصحه إياهم ، وأنهقد فوض أمره الى الله

ولقد هموا بقتله كما هموا بموسى ، فوقاه اللهسوء عملهم ، وكانت عاقبته السعادة والفخار ، وعاقبة آل فرعون النار والدمار

﴿ وَيَاقَوْمِ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ . لَاجَرَمَ أَنَّ مَاتَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ

النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ غافر

فرعون يستخف بموسى، ويباهى بملكه وثروته

كبر على فرعون أن يلبى دعوة موسى، ويتبع دينه، لما رأى له من عزة السلطان، ووافر الثروة التى تدرها عليه خيرات مصر بسبب نيلها الفياض، وماله من الفروع التى تبعث فيها الحياة ؛ وغلبت عليه نفسه التى لا ترى الخير والعز إلا فى كثرة المال ، ولا تعرف أن الله يختص برحمته وفضله من يشاء ، فأخذ ينادى فى قومه قائلا لهم : أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى بين يدىّ ؟ بل أنا خير من موسى هذا الضعيف الحقير العيِيّ الذى لا يكاد يظهر الكلام ، فهلا أُلقى عليه أساور من ذهب (وكان من عادتهم أن يلبس ملوكهم أساور) أو جاء معه الملائكة يعينونه ويصدقونه ؟

فكانت هذه الأقوال من فرعون كافية لاستخفافه قومه ، و إطاعتهم اياه ميلاً منهم عن الحق وزيغاً عن طريق الهدى، لأنهم ألفوا الانقياد له

وكانوا من القوم الظالمين الفاسقين

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ الزخرف

ثم ولّى معرضا عما دعاه اليه موسى من طاعة ربّه وخشيته وتوحيده ، وأخذ يسعى ويعمل فى معصية الله ، وفيما يسخطه عليه ، فجمع قومه وأتباعه ونادى فيهم قائلا : أنا ربكم الأعلى الذى كل رب دونى ، فأخذه الله بعقوبته على كلمته الأخيرة والأولى ؛ وأن فى ذلك لموعظة وعبرة لمن يخشى الله ويخاف عقابه

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾

النازعات

الآيات التى أرسلها الله تعالى على فرعون وقومه لما كذبوا موسى

لما أخذت فرعون العزة بالإثم ، ولم يذعن لأمر الله ، وتمادى فى تكذيب موسى، واستمر فى تعذيب بنى إسرائيل ، وايقاع ضروب الذلة والاهانة بهم ، أمر الله تعالى موسى أن يعلن فرعون وقومه بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جزاء لهم على تكذيبه إياه وامتناعهم من إطلاق بنى إسرائيل : فكانوا كلما وقع بهم عذاب بعد إبلاغ موسى إياهم به وعدوه بالإيمان به تارة، وبارسال بنى إسرائيل معه تارة أخرى، إذا سأل ربه كشف مانزل بهم من العذاب ، فاذا كشف الله عنهم مانزل بهم عادوا إلى طغيانهم ، وغدروا بعهدهم ، وأخلفوا وعدهم ، وهكذا إلى أن كانت الآية الكبرى ، والبطشة العظمى ، وهى إغراق فرعون فى اليم ، ونجاة بنى إسرائيل وتلك الآيات هى :

أولا – الجدب بأن قل عنهم النيل وقصر عن إرواء أرضهم

ثانيا – النقص من الثمرات بسبب مايصيبها من العاهات

ثالثا – الطوفان الذى عمهم حتى عاقهم عن الزرع فى الوقت المناسب

رابعا – الجراد بأن أرسل الله على بلاد مصر الجراد فأكل الزرع وأهلك الثمار

خامسا — القمل الذى أتعبهم وحرمهم لذة النوم والراحة

سادسا — الضفادع التى كثرت عندهم حتى نغصت عليهم عيشتهم بسقوطها فى طعامهم وفراشهم و بين ملابسهم

سابعا — الدم وذلك باستحالة الماء دماً ، وقيل أن الله سلط عليهم الرعاف

ثامنا — الطمس على أموالهم وهو محقها وإهلاكها

تاسعا — اليد إذ كان يضع يده فى جيبه ثم يخرجها بيضاء من غير سوء

وقد ورد ذكر ذلك فى سورة الأعراف فى الآيات الآتية :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ

كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَاهُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ الأعراف

يقول الله تعالى ذكره : ولقد اختبرنا قوم فرعون وأتباعه على ماهم عليه من الضلالة بالسنين الجدباء والقحط سنة بعد سنة ، وبذهاب ثمارهم وغلالهم ، إلا القليل ، عظةً وتذكيراً لهم، ليزدجروا عن ضلالتهم ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة

فإذا جاء آل فرعون الخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا مايحيون به فى دنياهم قالوا : هذه نحن أولى بها، وأن تصبهم سيئة، أى جدب وقحط وبلاء ، يطيّروا بموسى ومن معه ، ويقولوا : ذهبت حظوظنا من الرخاء والخصب مذ جاءنا موسى

ألا إنما الخير والشر من عند الله؛ ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك إذ لجهلهم كانوا يتشاءمون من موسى ومن معه

وقال آل فرعون لموسى: ياموسى، مهما تأتينا به من علامة ودلالة لتسحرنا وتفتننا بها عما نحن عليه من دين فرعون فما نحن بمصدقين على أنك محق فيما

تدعونا إليه ، فأرسل عليهم الطوفان (المطر الشديد) والجراد والقمل والضفادع والدم

كل ذلك علامات ودلالات على صحة نبوة موسى، وحقيقة مادعاهم إليه،أتت مفصلات يتلو بعضها بعضاً، ليكون لله عليهم الحجة،فينتقم منهم بعد ذلك،فاستكبر هؤلاء الذين أرسل الله عليهم هذه الآيات والحجج عن الايمان بالله وتصديق رسوله موسى عليه السلام وأتباعه، وتعظموا على الله وعتوا، وكانوا قوماً مجرمين يعملون بما يكرهه الله من المعاصى والفسق والتمرد

ولما نزل بهم عذاب الله،وحلّ بهم سخطه،فزعوا إلى موسى ليدعو لهم ربه وقالوا: ياموسى أُدعُ لنا إلهك لئن رفع عنا العذاب الذى نحن فيه لنؤمنن لك، ولنصدقن بما جئت به، ودعوت إليه، ولنقرن به ولنرسلن معك بنى إسرائيل،فلا نمنعهم أن يذهبوا معك حيث شئت،فدعا موسى ربه فأجابه،فلما رفع عنهم العذاب الذى أنزله بهم إلى الأجل الذى حدده لاستيفاء عذاب أيامهم،نقضوا عهودهم التى عاهدوا ربهم وموسى عليها . فلما نكثوا عهودهم انتقم الله منهم، فأغرقهم فى البحر،لأنهم كذبوا بآيات الله وحججه،وكانوا عن تلك النعمة غافلين

خروج موسى مع بنى إسرائيل من مصر

لما تكبر فرعون وأبى أن يستجيب لأمر ربه، وطغى وتمادى فى طغيانه، أوحى الله إلى موسى عليه السلام بأن يخرج مع بنى إسرائيل ليلا وأن يتخذ لهم طريقا يابسا فى البحر، وأمره أن يضرب بعصاه البحر لترفع مياهه عن الجانبين، فنزله وقومه يمرون على أرضه فلا يخاف من فرعون وجنوده أن يدركوه من ورائه ولا يخشى غرقا، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ طه

نجاة موسى وقومه، وغرق فرعون وجنوده

فسرى موسى ببنى إسرائيل كما أمره الله، وندم فرعون على أنهم انطلقوا بلا إذن منه فأرسل فى المدائن حاشرين، وجمع جمعا عظيما وأتبع بنى إسرائيل ليردهم الى عبوديته، وكان بنو إسرائيل قد بلغوا ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، واطلع عليهم مع شروق الشمس، فأيقنوا بالهلاك، وأن فرعون لابد أن يبطش بهم، فسكن موسى روعهم وضرب البحر كما أمره الله تعالى فانفلق حتى ظهرت أرضه، وكان كل فرق كالطود العظيم، وأمر بنى إسرائيل بالعبور فيه فعبروا من الشاطئ

الغربى الى الشاطئ الشرقى ، وأشرف فى ذلك الحين فرعون على الموضع الذى عبروا منه، فرأى طريقا فى البحر يابساً لاوعورة فيه، وبنى إسرائيل بين فرقى الماء لم يمسسهم أذى،فطمع أن يسير فى أثرهم فيردهم هو وجنوده ، فاقتحموا الطريق اليابس فى البحر خلف بنى إسرائيل فلما جاوز بنو إسرائيل البحر، ولم يبق أحد منهم بين المياه المنحسرة وفرعون قد توسط البحر هو وجنوده،انطبق البحر عليهم وعاد كما كان أولاً، وغرق فرعون وجنوده ، ولم يفلت منهم أحد ممن اقتحم الماء ، فأضل فرعون قومه وما سلك بهم طريق أهل الهدى والاستقامة ، بل سلك بهم طريق أهل الضلال بأمرهم بالكفر بالله وتكذيب رسله وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ طه

وفى ذلك الوقت الذى أدرك فيه فرعونَ الغرقُ قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين . أراد بهذه الكلمة أن يدفع عن نفسه الغرق ؛ ولكن قد نفذ فيه أمر الله لطغيانه وكفره

وقال الله له : اليوم ننجيك ببدنك ونأمر البحرَ أن يلفظ جثتك

الى الشاطىء لتكون لمن خلفك من الأجيال الآتية عظةً وعبرةً وكذلك لقومك حتى يروك بأعينهم عظاماً فيعتبروا بك ، ويعترفوا بأنك كنت مغروراً بادعائك الألوهية والعظمة

وقيل: انه كشفت جثته فى أحد النواويس وكتب بشأنه المرحوم احمد نجيب بك الأثرى الشهير صاحب كتاب (الأثر الجليل فى قدماء وادى النيل) مقالا ضافيا فى جريدة المؤيد أيام العثور على جثة ذلك الرجل وأكد أنه فرعون موسى ، واستدل على ذلك بقوله تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ يونس

حال بنى اسرائيل مع موسى

ولما جاوز بنو إسرائيل البحر ، وأتوا على قوم يعكفون على عبادة الأصنام ، غلبت عليهم شقاوتهم ووثنية المصريين الذين قلدوهم فيها (شأن المغلوب فى تقليد الغالب) فدفعتهم إلى أن يطلبوا من موسى

أن يتخذ لهم إلهاً كما لهؤلاء القوم آلهة

فأخذ موسى يؤنبهم ، ويلومهم ، ويوبخهم ، على طلبهم إلهاً سوى الله الذى فعل بعدوهم العجائب المدهشة ، وأنجاهم من عذابه ، وخصهم بالاكرام ، وفضلهم على العالمين ، وان إلهاً هذه آياته وهذه نعمه عليهم وإحسانه اليهم لا يعدل عن عبادته الى عبادة غيره إلا من كان جاهلا سعيها ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
الأعراف

ولما جاوزوا البحر وجاءوا الى الشاطئ الشرقى لم يجدوا ماء لشربهم وسقيا لدوابهم ، فشكوا إلى موسى متذمرين واستسقوه ، فأمره الله أن يضرب بعصاه الحجر ، فانبعثت منه إثنتا عشرة عيناً لكل سبط من الأسباط ، أى لكل قبيلة من القبائل عين تجرى بالماء يشربون منها ، وهذه العيون بالبر الشرقى غير بعيدة عن مدينة السويس ، وهى شهيرة (بعيون موسى) وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾ الأعراف

ولما كان زادهم عرضة للنفاد، وتاقت أنفسهم الى اللحم مع خشيتهم الجوع والهلاك ، أرسل الله لهم الرياح تحمل لهم المنّ والسلوى (المن الرحيق المتجمد وهو مادة تفرزها بعض الأشجار يميل طعمها الى الحلاوة فيها لبن وهى سهلة الهضم والسلوى طائر السمانى كان يقطن تلك الأرض فيأخذ منه كل انسان حاجته)

وقد ذكَّرهم الله بنعمه ، وحذرهم من الطغيان والكفر، تفاديًا من غضب الله عليهم ، فقال لهم : يابنى إسرائيل ، قد أنجيناكم من عدوكم فرعون وجنوده ، وواعدناكم جانب الطور الأيمن ، وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم حلالاً طيبًا، ولا تعتدوا على الناس ولا يظلم بعضكم بعضًا فيحل عليكم غضبى ، ومن يحل عليه غضب الله فقد هوى إلى الدرك الأسفل من النار ، وأن الله لغفار ،يتوب على من تاب وآمن وعمل صالحًا ، ثم سلك سبيل الهدى والرشاد ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ طه

ثم انهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو لهم ربهم ليخرج لهم من الأرض البقول، والعدس، والبصل، لأنهم لم يصبروا على طعام واحد ، فقال لهم موسى : أتستبدلون الشئ القليل القيمة بالذى هو خير منه ؟ وأمرهم أن يهبطوا إلى مصر فانهم يجدون فيها طلبهم ، هذا الطلب وسيلة من الله تعالى لتنبيههم إلى أن طلبهم لايكون إلا اذا نزلوا مصرًا من الأمصار

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاسَأَلْتُمْ ﴾ البقرة

ذهاب موسى لميقات ربه

وعد موسى عليه السلام قومه بنى إسرائيل ، وهم بمصر ، أن أهلك الله فرعون أتاهم بكتاب فيه الوصايا التى يطلب بنو إسرائيل العمل بها لما فيه صلاحهم

فلما أهلك الله فرعون ، سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره أن يصوم ثلاثين يوما ، وهى شهر ذى القعدة ، فلما أتم الثلاثين ، قيل : أنكر موسى خلوف فمه ، فاستاك أو أكل بعض النبات ، فقالت الملائكة لموسى : كنا نشم من فيك رائحة المسك ، فأفسدته بالسواك ، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة ، فأتمها أربعين ليلة ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ الأعراف

وقبل ذهاب موسى لميقات ربه ترك أخاه هارون وأمره أن يكون خليفة على بنى إسرائيل ، وأكد عليه النظر فى مصالحهم وشئونهم ، واليقظة فى أمرهم ، وألا يتبع سبيل المفسدين الذين يفسدون فى الأرض بمعصيتهم ربهم ومعونتهم أهل المعاصى ، ولكن يسلك سبيل المطيعين

﴿ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ الأعراف

مناجاة موسى لربه

وبعد تمام الأربعين ليلة كلّم موسى ربه وناجاه قائلا : رب أرنى أنظر اليك ؟ فقال الله له مجيبا : لَن ترانى ، وليس لبشر أن يطيق أن ينظر الىّ فى الدنيا ، وأراد أن يريه حقيقة ذلك وأن ماطلبه شيء عظيم لاتتحمله الجبال ، فأمره قائلا : أن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ الأعراف

فلما تجلّى الله للجبل جعله دكاً أى مستويا بالأرض ، وتفتت وخرّ موسى مغشيًا عليه كما يخر من أخذته الصاعقة ، وذلك لما هاله من صوت الجبل ، مما حصل له حين غاص فى الأرض وتفتت

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ الأعراف

فلما أفاق موسى من غشيته قال : سبحانك ، تنزيها لك يارب وتبرئة أن يراك أحد فى الدنيا ثم يعيش ، قد تبت اليك من مسألتى إياك ماسألتك من الرؤية، وأنا أول المؤمنين بك من قومى أن لايراك أحد فى الدنيا إلَّا هلك ، وأنا أول المؤمنين بقدرتك وجلالك وعظمتك

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
الأعراف

فقال الله لموسى : ياموسى إنى اصطفيتك على الناس ، واخترتك لتبليغ رسالاتى إلى خلقى ، فأرسلتك بها إليهم ، وخصصتك بكلامى ، فكلمتك وناجيتك دون غيرك (ولذا سمى موسى الكليم) فخذ ماأعطيتك من أمرى ونهيى، وتمسّكْ به فى عملك ، وكن من الشاكرين لله على ما آتاك

﴿ قَالَ يَامُوسَى إِنِّى اُصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِى وَبِكَلاَمِى فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ الأعراف

نزول التوراة على موسى عليه السلام

وبعد الأربعين ليلة كتب الله تعالى لموسى فى ألواحه (أى فى التوراة) من كل شئ ،من التذكير والتنبيه على عظمة الله وعز سلطانه موعظة لقومه، وتبيينا لكل شئ من أمر الله ونهيه، من بيان الحلال

والحرام، والمحاسن والقبائح ، وأمره أن (يأخذها بقوة) أى يعمل بما فيها بجهده ، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها (أى بأن يعملوا بأحسن ما يجدون فيها مما ترك لهم الخيار فيه كمعاقبة المعتدى أو العفو عنه ، والتجاوز عن بعض الحق أو المطالبة به كله الخ)

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ الأعراف

وأمره أن ينهيهم عن تضييعها، وتضييع العمل بما فيها والشرك بالله ، فان من أشرك بالله منهم ومن غيرهم فسيريه الله فى الآخرة عند مصيره دار الفاسقين ، أى النار التى أعدها لأعدائه الذين خرجوا عن طاعته ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الأعراف

وقد وعد الله بأنه سيصرف عن الأخذ بآياته من يتكبرون بغير حق، ولا يؤمنون بأية آية يرونها ، ويؤثرون الجهل والضلال على سبيل الرشد والهدى ، وذلك لتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عما فيها من أصول الحكم والحياة الصحيحة

وهؤلاء هم المستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وكل مكذب حجج الله ورسله وآياته ، وجاحد أنه مبعوث يوم القيامة بعد مماته ،

ومنكر لقاء الله فى آخرته ، كل هؤلاء قد ذهبت و بطلت أعمالهم ، ولا ينالون إلّا جزاء ما كانوا يعملون ، وهو الخلود فى النار ، نعوذ بالله منها إنّه خير مستجار به ، وذلك قوله تعالى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف

اتخاذ بنى إسرائيل العجل إلهاً يعبدونه

أخبر موسى عليه السلام قومه (بنى إسرائيل) قبل ذهابه لميقات ربه أن غيبته عنهم لاتطول أكثر من ثلاثين يوما مع مسافة الطريق إلى جبل (حوريب) وهو جبل الطور

فلما أمر الله موسى أن يستأنف صوم عشرة أيام ليتم ميقات ربه أربعين ليلة كما مرَّ ذكره طالت غيبته عن قومه ، واستبطأ القوم موسى ، فانتهز رجل من المنافقين منهم يقال له (السامرى) غيبة موسى وأخذ من

بنى إسرائيل بعض حليهم التى كانت نساؤهم أخذتها من المصريات قبل رحيلهم وألقاها فى النار ، وسبك منها عجلا مجسداً متقن الصنع ، وجعله بحيث أنه كان له خوار ،أى صوت كصوت البقر ،وقال لهم : هذا إلٰهكم وإله موسى :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ﴾ الأعراف

فما أغفلهم ! ألم يروا أنه لايكلمهم ، ولا يهديهم الى طريق الرشاد ؟ وكانوا باتخاذهم العجل معبوداً لهم ظالمين لأنفسهم لعبادتهم غير الله ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ الأعراف

ولما قضى موسى أجل الصوم ، وكلّم ربه،وأعطاه الألواح ، سأله الله تعالى لما قدم عليه فى الطور، عما أعجله عن قومه، وقال له : أى شىء أعجلك عن قومك ياموسى فتقدمتهم وتركتهم وراءك ولم تكن معهم ؟ فقال : هم قادمون على أثرى ، وسيلحقون بى ، وقد عجلت فسبقتهم لكى ترضى عنى ياربى

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ طه

فقال الله لموسى: يا موسى ، قد ابتلينا قومك من بعدك بعبادة العجل وأضلهم السامرى ، فلما سمع موسى قول ربه رجع الى قومه بعد انقضاء الأربعين ليلة غضبان أسفاً، متغيظاً على قومه، حزيناً لما أحدثوه من بعد فراقه لهم من الكفر بالله وعبادتهم العجل ، وقال لهم : ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً بإعطائكم التوراة ، فيها هدى ونور ، أفطال عليكم العهد بى ، وبجميل نعم الله عليكم وأياديه لديكم ؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم تستحقونه لعبادتكم العجل وكفركم بالله ؟ فأخلفتم موعدى

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى﴾ طه

فقالوا له : لم نخلف موعدك برغبتنا وأمرنا ولكننا ، حملنا أثقالا من زينة القوم (ويعنون بذلك حلى آل فرعون التى جمعوها منهم)

فألقيناها تلك الأثقال فى الحفرة فى النار ، فأخذها السامرى، وأخرج لنا مما قذفناه ومما ألقاه عجلا مجسداً جميل الصنع له صوت كصوت البقر وقال لنا : هذا إلٰهكم وإلٰه موسى ، وقد نسيه موسى فذهب يبحث عنه فى الطور ، وفى ذلك يقول تعالى :

﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هٰذَا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾ طه

توبيخ الله لهم على عبادة العجل

فوبخ الله عبدة العجل الذين قالوا هذا القول ، وسفه أحلامهم بما فعلوا ، وقال لهم :

أفلا يرى هؤلاء القوم الضالون أن هـذا العجل الذى زعموا أنه إلٰههم وإلٰه موسى لايكلمهم ؟ وإن كلموه لم يرد عليهم جوابا ، ولم يقدر على دفع ضرر أو جلب نفع ، فكيف يكون إلٰهاً ؟ وقال لهم هارون من قبل رجوع موسى اليهم ، ياقوم : إنما اختبر الله إيمانكم ، ومحافظتكم على دينكم ، بهذا العجل الذى أحدث فيه الخوار ، ليعلم به من الصحيح الايمان منكم من المريض القلب الشاك فى دينه ؟ واعلموا أن ربكم الرحمن الذى

تعم جميع الخلق نعمه ، فاتبعونى على ما آمركم به من عبادة الله ، وترك عبادة العجل ، وأطيعوا أمرى فيما آمركم به من طاعة الله وإخلاص العبادة له ؛ لقوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ طه

فقالوا له : لن نَظَلّ على عبادة العجل مقيمين نعبده حتى يرجع الينا موسى

﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ طه

فلما رجع موسى الى قومه، رجع غضبان أسفاً حزيناً، وقال لهم : بئس مافعلتم بعد فراقى إياكم ، وتعجلتم أمر ربكم فى نفوسكم وذهبتم عنه . ثم من شدة الغضب ألقى موسى الألواح وكسرها ، وأخذ برأس أخيه يجره اليه ؛ لأنه ظن به التقصير فى النصح لهم ، فقال له هارون : ابن أم إن القوم استضعفونى، وكادوا يقتلوننى،فلا تفعل مايشمتهم بى،ولا تعدّنى فى عداد الظالمين

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ

يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الأعراف

ثم قال موسى لأخيه هارون : ياهارون، أى شىء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم فكفروا بالله وعبدوا العجل ؟ ألا تفعل مثل مافعلت أنا فتغضب ، أفعصيت أمرى ؟ وجذبه من لحيته ورأسه

فقال له هارون : يا ابن أم لاتفعل بى هذا ولا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إنى خفت أن تقول فرقت بينهم ولم تحفظ قولى

﴿ قَالَ يَاهَارُونُ مَامَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾ طه

فالتفت موسى للسامرى وقال له : ماشأنك وما الذى فعلته ؟ قال : رأيت مالم يروه ، وهو فرس جبريل كان لايطأ موات أرض إلا أحياه الله بالخضرة ، فأخذت قليلاً من التراب الذى يطؤه ووضعته على الذهب الذى أذبناه ، فلما صنعناه عجلاً سرت فيه الحياة وصوّت ، وقد زينت لى نفسى أنه يكون كذلك

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِىُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ طه

فقال موسى للسامرى : إذهب، فان عقوبتك فى أيام حياتك أن كل من لمسته تأخذه الحمى،وتأخذك معه،فلا تفتر عن قول لامساس كلما قرب منك أحد ، وأن لك موعداً لعذابك وعقوبتك على مافعلت من إضلالك قومى، حتى عبدوا العجل من دون الله، لن تخلفه أنت ولن تغيب عنه يوم القيامة فيتولى الله معاقبتك ؛ وانظر الى إلٰهك الذى أقمت وعكفت على عبادته لنحرقنه بالنار، ثم لننسفنه فى البحر نسفا

ثم نظر الى قومه وقال لهم : أيها القوم ، مالكم معبود إلا الله الذى لا إله إلَّا هو ، والذى أحاط بكل شىء علماً فعلمه ، فلا يخفى عليه شىء لافى الأرض ولا فى السماء

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ طه

لما تبين لموسى عذر أخيه وعلم أنه لم يفرط فى الواجب الذى كان عليه من أمر الله فى ارتكاب مافعله الجهلة من عبدة العجل قال : رب

اغفرلى ولأخى، واستر ذنوبنا بسترمنك، وارحمنا برحمتك الواسعةفانك أنت أرحم بعبادك من كل الرّاحمين

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ الأعراف

ولما سكت غضب موسى أخذ الألواح بعد ما ألقاها ، وقد ذهب منها ماذهب ، وفى نسختها هدًى وبيان للحق، ورحمة للذين يخافون الله ويخشون عقابه على معاصيه

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ الأعراف

ثم ان الله أمر موسى أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون اليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً ، فاختار موسى سبعين رجلا من قومه وقال لهم : انطلقوا معى الى الله فتوبوا مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، وصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ، فخرج بهم الى (طور سينا) لميقات ربه وكان لايأتيه إلا بأذن منه وعلم

فقالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ؛ فقال : أفعل

فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى

فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا ، فدنا القوم حتى اذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه فطمعوا فى رؤيته فلما فرغ موسى من أمره ، وانكشف عنه الغمام ، أقبل اليهم فقالوا له : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرةً ، فأخذتهم الرجفة وهى (الصاعقة) فماتوا جميعاً

وقام موسى عليه السلام يناشد ربه ، ويدعوه ويرغب اليه ويقول له : لوشئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا بعبادة العجل ؟ ماهذه الفعلة التى فعلها قومى من عبادتهم العجل إلا فتنة منك يارب ابتليتهم بها ، ليتبين لك الذى يضل عن الحق ، والذى يهتدى بترك عبادة غيرك ؛ وما هو إلا عذابك تصيب به من تشاء وتصرفه عمن تشاء ، فأنت ولينا وناصرنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، واستر علينا ، وارحمنا برحمتك ، فأنت خير من يصفح ويعفو ويرحم

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

الأعراف

ثم أخذ موسى يتضرع الى الله ويقول : يارب اخترت سبعين رجلاً من أخيار بنى إسرائيل وأعود اليهم وليسوا معى فلا يصدقوننى ؛ ولم يزل يتضرع حتى أحياهم الله ورد اليهم أرواحهم ، فعاشوا ينظر بعضهم الى بعض كيف يحيون بعد موتهم ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ البقرة

فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله . فقالوا : لا ، فقال : أى شىء أصابكم ؟ قالوا : أصابنا إنا متنا ثم حيينا . قال : خذوا كتاب الله قالوا : لا . فبعث الله تعالى الملائكة فنتقت الجبل فوقهم ، أى زعزعته وهزته ؛ فقيل لهم : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا (جبل الطور) قال : خذوا الكتاب ، وإلا طرحنا الجبل عليكم

فلما هددهم الله برفع الجبل فوق رؤوسهم أخذ عليهم العهد بالعمل بما فى الكتاب (التوراة) جهد استطاعتهم وتدبره ، والاعتبار بما فيه لعلهم يتقون الله ويخافون ، ويقلعون عما كان من إصرارهم ؛ قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة

ثم بعد هذا كله لم يكن منهم إلا الادبار والاعراض عن الميثاق الذى أخذه الله عليهم، ولولا فضل الله عليهم بتوفيقهم للتوبة لكانوا من الهالكين الخاسرين بسبب نقضهم الميثاق وعدم اطاعتهم أمر الله تعالى

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ البقرة

توبة بنى إسراءيل عن عبادة العجل

فلما علم بنو إسراءيل أنهم قد أخطأوا وضلوا فى عبادتهم العجل ندموا على ذلك، وقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ، ويغفر لنا شركنا ، ويتب علينا ، لنكونن من الخاسرين

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف

ثم قال موسى لقومه من بنى إسراءيل : ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ربا بعد فراقى ، ثم أمرهم بالرجوع من ذنبهم ، والانابة الى الله من ردتهم، بالتوبة اليه، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به ، وأخبرهم أن توبتهم من الذنب الذى ركبوه تكون بقتلهم أنفسهم ، بأن يقتل كل انسان من يقابله من قريب أو أخ أو نحو ذلك ، فان ذلك خير لهم

عند الله ؛ فأخذوا يقتتلون حتى قتل منهم عدد عظيم ، وقيل قتل منهم سبعون الفاً ، فكان من قتل منهم شهيداً ، ومن بقى قد قبلت توبته لأن الله تواب رحيم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ البقرة

أمر الله بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة وعصيانهم موسى

أمر الله تعالى موسى أن يذهب ببنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة لامتلاكها (وهى فلسطين التى وعد الله ابراهيم واسحٰق ويعقوب أن تكون ملكا لأولادهم) فقال لهم موسى :

ياقوم تذكروا فضل الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء يتولونكم بالهداية والارشاد ، وجعل منكم ملوكاً ، وآتاكم من فضله مالم يؤت أحداً من العالمين ؛ ياقوم إن الله أراد أن تكون الأرض المقدسة مسكناً لكم فادخلوها ، ولا تهنوا أمام محتليها ، ولا ترجعوا فتنقلبوا خاسرين ثواب الدارين (الدنيا والآخرة) .

ولكن بني إسراءيل قوم قد ألفوا الذل والمسكنة ، وتمكن الصغَّار والهوان من أنفسهم ، فلم تكن لهم قوة على الدخول الى تلك الأرض فلم يشاءوا أن يذهبوا اليها إطاعة لأمر ربهم وقالوا : ياموسى ، إن فيها قوماً جبارين ، لاطاقة لنا بحربهم ، ولا قوة لنا بهم ، ولن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان خرجوا منها دخلنا ، وإلا فلا نطيق دخولها وهم فيها

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ المائدة

وقال رجلان من الذين جاسوا خلال البلاد لبنى إسراءيل (يوشع ابن نون وكالب بن يوقنا) وكانا رجلين صالحين من الذين يتقون الله ويخافونه، أنعم الله عليهما بالهدى والثبات ، واتبعا موسى وهارون : ادخلوا عليهم أيها القوم باب مدينتهم (اريحاء) فان الله معكم وناصركم عليهم ، وانكم إذا دخلتم الباب غلبتموهم ؛ وتوكلوا أيها القوم على الله

فى دخولكم عليهم ، وثقوا بأن الله معكم إن أطعتموه فيما أمركم من جهاد عدوكم إن كنتم مصدقين ومؤمنين بنبيكم

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة

فقالوا ياموسى : لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا هؤلاء الجبارين ، إنا ههنا قاعدون لانجىء معك إن ذهبت لقتالهم

﴿ قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ المائدة

فعند ذلك غضب موسى وقال لربه داعياً : يارب إنى لا أملك إلا نفسى ، ولا أقدر أن أحمل أحداً على ماأحب وأريد من طاعتك واتباع أمرك ونهيك إلا نفس أخى ، فافصل بيننا وبينهم بقضاء ، وحكم عادل منك تقضيه فينا وفيهم ، إنهم قوم فاسقون ، وخارجون عن الايمان بالله

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ المائدة

التيه الذى كتبه الله على بنى إسرائيل أربعين سنة

فأوحى الله الى موسى أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة، يتيهون فى الأرض ويسيرون متحيرين فلا تحزن على القوم الفاسقين

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ المائدة

فكان بقاء بنى إسرائيل فى البرية من عهد خروجهم من مصر الى أن مات موسى عليه السلام وعبروا نهر الأردن وملكوا (اريحاء) وما معها من الأرض غرب الأردن أربعين سنة

ذكر القرية التى مسخ الله أهلها بعدوانهم فى السبت وجعلهم قردة

قال موسى لبنى إسرائيل اسكنوا هذه القرية، وهى قرية بيت المقدس (وقيل انها مدين وقيل انها طبرية) فكلوا من ثمارها وحبوبها ونباتها فى أى مكان شئتم، وادعوا الله أن يحبط عنكم أوزاركم، وادخلوا بابها ساجدين، فيغفر لكم ذنوبكم، ويتغمدكم برحمته، ويعفو عنكم، فلا يؤاخذكم بها، ويزيد الله المحسنين، وهم المطيعون له، إحسانا

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف

فغير الذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به من القول ، فبعث الله عليهم عذابًا من السماء وأهلكهم بظلمهم

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف

وكان أهل هذه القرية يعتدون فى يوم السبت أمر الله، ويتجاوزونه إلى ماحرمه عليهم بالصيد فيه ، إذْ كانت تأتيهم الأسماك يوم السبت طافية على وجه الماء ، ولا تأتيهم فى غيره من الأيام ؛ وقد ابتلاهم الله بهذه المحنة بسبب فسقهم

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ الأعراف

فقالت جماعة من اليهود لجماعة منهم كانت تعظ المعتدين فى السبت وتنهاهم عن معصية الله فيه : لِمَ تعظون قوماً سيهلكهم الله فى الدنيا

بمعصيتهم إياه، وخلافهم أمره ؟ واستحلالهم ما حرم الله عليهم وسيعذبهم عذابًا شديداً فى الآخرة ؟

فقالوا لهم : إنما نعظهم لنؤدى فرض الله علينا، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لعلهم يتقون ، وفى ذلك معذرة منا لربنا

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُم لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُم يَتَّقُونَ ﴾

الأعراف

فلما خالفت الطائفة التى اعتدت فى السبت ما أمرها الله به من ترك الاعتداء فيه أنجى الله الذين ينهون منهم عن السوء، وأخذ الذين ظلموا واعتدوا فى السبت واستحلوا ماحرَّم الله من صيد السمك وأكله، فأحل بهم بأسه، وأهلكهم بعذاب شديد

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَينا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيس بِمَا كَانُوا يفسقُونَ ﴾

الأعراف

فلما تمردوا وتمادوا فى طغيانهم جعلهم الله قردة لها أذناب تعوى بعد ما كانوا رجالا ونساء مطرودين من رحمة الله

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

الأعراف

وجعل الله هذه العقوبة عبرةً للأمم المعاصرة لهم والتى تجىء من بعدهم إلى أبد الآبدين

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

البقرة

معجزة موسى فى مسألة البقرة مع بنى إسرائيل

كان فى بنى إسرائيل رجل عَتِىٌّ، ولم يكن له ولد ، وكان له ابن عم وكان وارثه ، فقتله طمعاً فى ميراثه ، ثم ألقاه على مجمع الطريق ، وأتى موسى فقال له : إن قريبى قُتل، وإنى فى حيرة من أمرى، وإنى لا أجد أحداً يرشدنى على القاتل غيرك يانبى الله

فنادى موسى فى الناس من كان عنده من هذا علم يبينه لنا ؟

فلم يكن عندهم علمه، فأقبل القاتل على موسى فقال له : أنت نبى الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا

فسأل موسى ربه، فأوحى الله اليه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ليبين لكم المجرم من البرىء . فعجبوا لقوله، وقالوا له : انك تهزأ بنا . فقال : (أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) قالوا : (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ) ؟ قال لهم : إن الله يقول : إنها بقرة لاصغيرة ولا هرمة

بل هى نَصَفٌ بين البكر والهرمة

﴿ قَالَ إنهُ يَقُولُ إنهَا بَقَرَةٌ لافَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ فَافعَلُوا مَاتُؤْمَرُونَ ﴾

فقالوا: ﴿ اُدْعُ لنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لنَامَالَوْنُهَا ﴾ قال: انه يقول: ﴿ إنهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ أى صاف لونها ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ أى تعجب الناظرين لحسنها

قالوا: ﴿ اُدْعُ لَنَا رَبَّكَ يبين لنَا مَاهِيَ إنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

قال: ﴿ إنهُ يَقُولُ إنهَا بَقَرَةٌ لاَذَلُولٌ (أى لم يذللها العمل) تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ (أى لاتعمل فى الحرث) مُسَلَّمَةٌ لاشِيَةَ فِيهَا ﴾ أى سليمة من العيوب لابياض فيها

قالوا: ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ثم طلبوا البقرة فذبحوها

وبعد ذلك جاء موسى بلسانها وضرب به القتيل، فرجعت له الحياة وأخبر عن قاتله بقدرة الله تعالى، كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تتقون

ومع ظهور هذه المعجزة الغريبة لبنى إسرائيل بقيت قلوبهم على قساوتها كأنها الحجارة أو أشد قسوة منها، ولم تحدث هذه العجيبة فى قلوبهم ليناً

إيذاء بنى إسرائيل لموسى

أما مسألة إيذاء بنى إسراءيل لموسى عليه السلام فقد تعدد القول فيها ، ذكر البيضاوى فيها مايأتى :

ان موسى طلب الزكاة من قارون (وكان رجلا من بنى إسراءيل آتاه الله بسطة فى الرزق ، وأدر عليه الثراء ، حتى أن مفاتيح خزائنه كانت تنوء بالعصبة أولى القوة ، وكان مرموقا من قومه بعين الغبطة)

فشحَّت نفسه بالمـال ، وأراد أن يكيد لموسى ليرجمه ، فاتفق مع امرأة أن تقول عن موسى أنه زنى بها ، ولمـا أصبح قال لموسى : أليس من الشريعة أن الزانى يرجم ؟ قال : نعم . قال : فانك قد زنيت بفلانة ويجب أن تسلم نفسك لنرجمك

فلما جاءت المرأة أخبرت أن قارون لقنها أن تدعى هذه الدعوى على موسى وهو برىء منها ، و بذلك برأه الله مما قالوا وكان عندالله وجيها

أما قارون الذى افترى على موسى فكانت عاقبته أن خسف الله به وبداره الأرض ؛ قال تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً ﴾ الأحزاب

قصة موسى مع العبد الصالح (الخضر)

قال ابن عباس : حدثنى أبى ابن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

ان موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسُئل أى الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم اليه ، فأوحى الله اليه ، أن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك

قال موسى : يارب فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتًا فتجعله فى مكتل (مقطف) فحيثما فقدت الحوت فقد وجدته ، فأخذ حوتًا فى مكتل وانطلق به ، وانطلق معه فتاه (يوشع بن نون) حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر (فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : (آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه: (أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا

الشيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾

قال : فكان النسيان للحوت سربًا ، ولموسى ولفتاه عجبًا . فقال موسى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴾ قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا الى الصخرة فاذا رجل نائم (يُدعى الخضر) مسجى بثوبه ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنى يكون بأرضنا السلام؟ ومن أنت ؟ قال : أنا موسى قال: موسى صاحب بنى اسراءيل؟ قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا قال : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ؛ وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه أنا

فقال موسى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾

فقال له الخضر : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلما من فيها أن يحملوهما فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول (أجر) فلما ركبا فى السفينة لم يشعرا إلا والخضر قد خلع لوحًا من السفينة ، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت الى سفينتهم فخرقتها ﴿ لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ أى أمراً عظيما

قال له الخضر : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ قال :

(لاَ تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ) قال : وكانت الأولى من موسى نسيانًا

قال : وجاء عصفور فوقع على طرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر : مانقص علمى وعلمك من علم الله إلا مقدار مانقر أو نقص هـذا العصفور من البحر

قال : ثم خرجا من السفينة ، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر بغلام يلعب مع الغلمان ، فأخذ برأسه فقتله ؛ فقال له موسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾

قال : وهذه أشد من الأولى . قال ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذْرًا ﴾ قال : ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ ﴾

قال : مسحه بيده فقال له موسى : قوم أتيناهم فلم يضيفونا ، ولم ينزلونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

قال : ﴿ هَـذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَالَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لوددت انه كان صبر حتى يقص علينا قصصهم .

وهذه القصة مذكورة بالتفصيل فى سورة الكهف والله أعلم

موت موسى وهارون وثناء الله عليهما

قيل : ان موسى عليه السلام أمره الله أن يصعد إلى جبل « نبو » وينظر أرض الموعد دون أن يدخلها ، ففعل ، ومات على الأكمة التى هى من رمل أحمر ودفن هناك وخفيت معالم قبره

وأهل (فلسطين) يدعون أن قبره فى موضع من بلادهم ويقيمون له مولداً يقصد من كل ناحية فى كل سنة فى موعد معين ، وكان عمر موسى ١٢٠ مائة وعشرين سنة

أما هارون فقد مات قبل موسى ودفن فى جبل (هور) من جبال (سينا) التى فى البرية ، والذى دفنه هو موسى ، ثم عاد الى بنى إسرائيل وأخبرهم بموته ، فاتهموه بقتله ، وهذا غير صحيح

وقد أثنى الله على موسى وهارون ثناء طيباً لما كابداه من عنت قومهما وشدة ثباتهم مع ما كانا عليه من الايمان الصحيح والاخلاص قال تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولا

نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ
مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ مريم

العبرة من قصة موسى وهارون عليهما السلام

يستفاد من هذه القصة عظات بالغات وهى :

١ – الصبر على البلاء وتحمل البأساء والضراء

٢ – التوكل والاعتماد على الله فى كل الأمور

٣ – التمسك بالحق وعدم المبالاة بمن يخالفه ولو كان عظيما أو ملكا أو أميراً

٤ – ان للحق أنصاراً كما أن للباطل أنصاراً ولكن الحق يقهر الباطل

٥ – لذة الايمان بالله ، والاخلاص فى عبادته وعدم المبالاة بالعذاب فى سبيل الدعوة الى الله

٦ – الحلم عند الغضب، ومقابلة الاساءة بالاحسان

٧ – عدم الغرور والادعاء بالعلم والاعتراف بالفضل لذويه

٢٤ — قصة سيدنا عيسى بن مريم

عليه السلام (عبده ورسوله)

سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام هو عبد الله ورسوله، وكلمته التى ألقاها إلى مريم، وروح منه، وهو آخر أنبياء الله ورسله من بنى إسرائيل كما أن آخر الأنبياء والرسل من بنى الإنسان جميعاً (محمد رسول الله) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

وقد ذكر اسم عيسى فى القرآن بلفظ المسيح تارة، وهو لقب له، وبلفظ عيسى وهو اسمه العلمى وبالعبرية (يشوع) أى المخلص إشارة إلى أنه سبب لتخليص كثير منهم من آثامهم وضلالهم . وبكنيته (ابن مريم) تارة أخرى

ومن جليل حكم الله تعالى أن خلق سيدنا آدم أبا البشر عليه السلام من تراب من غير أب وأم، وخلق حواء من غير أم ، وخلق عيسى عليه السلام من غير أب ، وخلق بقية النوع الإنسانى من أب وأم

١ ـ تبشير مريم بعيسى

لما أراد الله تعالى أن يخلق نبيه عيسى عليه السلام أرسل إلى مريم بنت عمران ، حينما اعتزلت أهلها فى مكان شرقى واتخذت من دونهم

ستراً لتغتسل من حيضها وتتطهر، أرسل إليها الملك جبريل فتمثل لها بشراً سوى الخلق، أى فى صورة رجل من بنى آدم معتدل الخلق

فلما رأت جبريل عليه السلام أخذها الرعب وظنت أنه يريد بها سوءاً فاستعاذت بالله منه ،وقالت له : إن كنت تقيًا فلا تتعرض لى بسوء

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾

مريم

فقال لها جبريل عليه السلام : إنما أنا رسول ربك يامريم ، أرسلني إليك لأهب لك غلاما زكيًا طاهراً من الذنوب

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ مريم

فأجابته : كيف يكون لى ولد، وأنا لم أتزوج ، ولم يمسسنى بشر ، ولست من أهل البغى؟

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

مريم

فقال لها جبريل : هكذا الأمر كما تصفين من أنك غير متزوجة ولم تكونى بغيًا؛ ولكن ربك قال: هو هين (أى خلق الغلام الذى قلت

إني رسول الله لأ هبه لك هو هين)، لايتعذر عليه خلقه وقدأراد ذلك ليكون دليلاً للناس على عظم قدرته، ورحمته لمن آمن به وصدقه ؛ وقد حكم حكما مقضياً بايجاده لا محالة

﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ مريم

فنفخ جبريل عليه السلام فى جيب درعها فوصلت النفخة إلى جوفها فإذا هى حامل وهى بنت عشر سنين بعيسى عليه السلام

ولما حملت اعتزلت فى مكان بعيد، وتنحت عن الناس، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة، وولدت المسيح عيسى فى (بيت لحم) ثم قالت من طريق الخجل والاستحياء : ياليتنى مت قبل الكرب الذى أنا فيه ، والحزن بولادتى هذا المولود من غير بعل، وكنت فى عالم النسيان لايذكرنى أحد

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾

مريم

٢ — ولادة عيسى عليه السلام

فلما وضعته ناداها مناد من تحتها (بعضهم يقول جبريل عليه السلام

و بعضهم —وهم أغلب المفسرين — يقول عيسى عليه السلام ناداها من تحتها بعد ما ولدته) قائلا: يامريم قد جعل ربك تحتك سيداً سريًا وجيهًا رفيع القدر ،وهزى إليك بجذع النخلة تتساقط عليك رطبًا جنيًا، فكلى من هذا الرطب،واشربى من ماء النهر الذى بجوارك ،وقرّى عينًا،وطيبى نفسًا، وافرحى بولادتك إياى ، ولا تحزنى، فإن رأيت من بنى آدم أحداً يكلمك أو يسائلك عن شىء من أمرك وأمر ولدك وسبب ولادته فقولى له : إنى نذرت وأوجبت على نفسى لله صمتا ألّا أكلم أحداً من الخلق،فلن أكلم اليوم إنسانا

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى وَاشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ مريم

فلما قال ذلك عيسى لأمه مريم اطمأنت نفسها ، وسلمت لأمر الله وحملته حتى أتت به قومها بنى إسرائيل وهم مجتمعون ومعهم زكريا، فلما رأوها ورأوه معها قالوا لها : يامريم لقدجئت أمرا منكراً ، ثم قالوا لها على سبيل الاستهزاء والتهكم :

يا أخت هارون (وقيل ان هارون هذا كان رجلا صالحا من أتقياء

بنى إسرائيل) ما كان أبوك رجل سوء يأتى بالفواحش، وما كانت أمك بزانية، فمن أين أتيت بهذه الفضيحة ؟

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

مريم

فقالت لهم: كلموه ، وأشارت إليه ، فقالوا : كيف نكلم من وجد فى المهد صبياً ؟ واستغربوا من ذلك

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

مريم

فلم يمهلهم عيسى عليه السلام، بل أجابهم الجواب الشافى الدال على براءة أمه، والمعلن أنه سيكون من أهل العلم والدين الذين آتاهم الله الكتاب (الانجيل) وأنه سيجعله نبيا، وأن يبارك فيه أينما توجه، وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، وأن سيكون براً بوالدته، وسيكون عبدا متواضعا لا جبارا شقيا، ولا مختالا فخورا، و إن الله قد حفظه وأمه يوم ولادته، وأنه سيموت فى أمن وسلام، وسيبعث يوم القيامة حيّا

ثم لم يتكلم بعد ذلك، حتى كان بمنزلة غيره من الغلمان

وفى ذلك قوله تعالى على لسان عيسى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ مريم

فلما سمع ذلك أحبار بنى إسرائيل من عيسى عليه السلام علموا أنه لا أب له ، وأن الله عز وجل خلقه كما خلق آدم ؛ فتحققت بذلك براءة مريم ، وقال زكريا : الحمد لله الذى برأنا من كلام الفساق

وقال الله تعالى : هذا الغلام الذى أخبرتكم به، و بينت لكم صفاته هو (عيسى بن مريم) وهذا الخبر الذى قصصته عليكم هو قول الحق لاشك ولا مرية فيه

﴿ ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ مريم

ولما تم لعيسى عليه السلام ثمانية أيام من مولده خُتن وسموه (اليسوع) وسنة الختان عند اليهود أن الطفل يختن بعد ثمانية أيام من ولادته ، كما أمر الله ابراهيم بذلك ، ولم يرد ذكر ختانه فى القرآن الشريف بل ورد فى بعض الأناجيل

مثل عيسى كمثل آدم

وقد قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حينما كان أهل نجران

النصارى يجادلونه فى كون عيسى عليه السلام خلق من غير أب : قل لهم : ان شأن عيسى (وهو فى بابه غريب إذ خلقه بلا أب) كشأن آدم ، فقد خلقه من التراب ، ثم قال له : كن بشراً سوياً فكان ، فآدم قد خلقه الله من تراب بلا أب ولا أم، فحاله أغرب من عيسى ، وأدعى لاظهار قدرة الله الخالق لكل شيء

وهذا هو الحق من عند الله فلا تكن يا محمد فى شك ولا مرية فيه ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

آل عمران

٣ — ذهاب مريم والمسيح عيسى إلى مصر

مع ابن عمها يوسف النجار

ثم أخذت مريم ابنها عيسى عليه السلام وسارت به إلى مصر مع ابن عمها يوسف النجار وأقاموا هناك اثنتى عشرة سنة

وقيل : أن مصر هى الربوة التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم لقوله تعالى فى حق عيسى وأمه : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً

وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ المؤمنون

ويزعم المسيحيون فى مصر أنهما استقرا ببلدة (عين شمس) بضواحى القاهرة ، ويقولون: أنهما استظلا هناك بشجرة قد بقى أصلها محتفظا به الى أمد غير بعيد ، وكانوا يسمونها شجرة العذراء (أى شجرة مريم) ويعنى الناس بالذهاب الى زيارتها بضاحية المطرية

ولما مات ملك الشام (هيرودس) الذى كان يريد قتل عيسى ، رجعت مريم وعيسى ويوسف ومن آمن معهم الى أرض الخليل ، وهو موضع بالشام ، وسكنوا فى قرية يقال لها (الناصرة) وبها سميت النصارى ، وأقاموا بها زمنا طويلا ، ونشأ فيها عيسى عليه السلام نشأة صالحة محمودة ، وعاش فى النعمة والحكمة أمام الله والناس ، وكان غيوراً على الدين منذ صغره ، حريصاً على تفهم حكمه وأسراره ، وكان يجالس العلماء ويناقشهم ويسائلهم ويجيبهم ، فالبيئة التى تربى فيها مدة صباه وشبابه بيئة علم وحكمة ودين

٤ — نبوة المسيح عيسى عليه السلام ورسالته

لما بلغ عيسى عليه السلام ثلاثين سنة من العمر جاءه الوحى داخل مسجد بيت المقدس ، وكان قد تعلم الكتاب فبعثه الله رسولا ، وعلمه التوراة والانجيل ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ آل عمران

ويقول الله تعالى: قد اتبعنا عيسى بن مريم آثار النبيين الذين أسلموا من قبلك يا محمد ، فبعثناه نبيًا ، مصدقًا لكتابنا الذى أنزلناه الى موسى من قبله ، وأنه حق ، وأن العمل بما لم ينسخه الانجيل منه فرض واجب ، وأنزلنا إليه كتابنا الذى اسمه (الانجيل) فيه هدًى ، وهو بيان ما جهله الناس من حكم الله فى زمانه ، ونور وضياء من عمى الجهالة (ومصدقا لما بين يديه) أى أنزلناه اليه بتصديق ما كان قبله من كتب الله التى كان أنزلها على كل أمة ، أنزل الى نبيها كتاب للعمل بما أنزل إلى نبيهم فى ذلك الكتاب من تحليل ما حلل الله ، وتحريم ما حرم (وهدى وموعظة) أى أنزل الانجيل على عيسى مصدقا للكتب التى قبله ، وبيانا لحكم الله الذى ارتضاه لعباده المتقين ، فى زمان عيسى وزجراً لهم عما يكرهه الله الى ما يحبه من الأعمال

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة

وأمر الله النصارى بأن يحكموا بما أنزل الله فى الانجيل من أحكامه

فاذا لم يحكموا بما أنزل الله فيه وخالفوه فأولئك هم الخارجون عن الدين أى عن أمر الله

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المائدة

٥ — معجزات عيسى عليه السلام

فلما جاء إلى بنى إسرائيل سألوه أن يأتى لهم بعلامة تدل على رسالته ونبوته فقال لهم : إن حجتى على ذلك إنى قد جئتكم بآية من ربكم تحقق قولى ، وتصدق خبرى ، إنى رسول من ربكم اليكم ، وفى ذلك قوله تعالى على لسانه :

﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ آل عمران

فقالوا له : ماهذه الآية التى جئتنابها ؟ قال لهم : إن علامة صدقى أن أصنع لكم من الطين مايشبه الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله (وقيل هو الخفاش)

﴿ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ آل عمران

وأشفى الأكمه (المولود الأعمى الذى لا يبصر) وأشفى المصاب بداء البرص

وأحيي الموتى بإذن الله

وقيـل : أنه أحيا (عازر) وكان صديقا له فمرض فأرسلت أخته إلى عيسى أن عازر يموت فسار إليه وبينهما ثلاثة أيام فوصل إليه وقد مات منذ ثلاثة أيام فأتى قبره فدعا له فأحياه الله وبقى حتى ولد له ، وأحيا امرأة وعاشت وولد لها

وقيل : ان بنى إسرائيل قالوا له: أحْى لنا عزيرا وإلا أحرقناك، فدعا الله فأحياه، فقالوا: ما تشهد لهذا الرجل ؟ قال: أشهد أنه عبدالله ورسوله .

وأخبركم بما تأكلونه مع أهلكم وما تدخرونه فى بيوتكم

﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾

آل عمران

إن فى كل هذه المعجزات لدليلاً كافياً على أنى محق فى قولى لكم إنى رسول من ربكم إليكم ، وتعلمون به أنى فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته، مقرين بتوحيده ونبيه موسى ،والتوراة التى جاءكم بها، وأنى أحل لكم بعض ما حرم عليكم أى أخبركم أنه كان حراماً عليكم فتركتموه، ثم أحله لكم تخفيفا عنكم فتصيبون يسره وتخرجون من تبعته

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

آل عمران

ثم قال: لقد جئتكم بآية من ربكم، تعلمون بها يقينا صدقي فيما أقول فاتقوا الله يامعشر بني إسرائيل فيما آمركم به، وأنها كم عنه في كتابه الذي أنزل على موسى، فأوفوا بعهده الذي عاهدتموه فيه، وأطيعوني فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم ربي وربكم، فاعبدوه فإنه بذلك أرسلني اليكم، وبإحلال بعض ما كان محرما عليكم في كتابكم وهو الطريق القويم والهدى المبين، الذي لا اعوجاج فيه

﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ آل عمران

٦ — إقامة الحجة على من كفر

وادعى أن المسيح هو الله، وابن الله، وثالث ثلاثة

لقد كفرت النصارى الذين قالوا: عيسى ابن الله، وأعظموا الفرية عليه، فما ينبغي لله أن يتخذ ولداً، ولا يمكن أن يكون له ذلك؛ بل كل شيء دونه، فهو ليس في حاجة للاعانة، وإنما إذا أراد أمراً أن يقول له: كن فيكون، وفي ذلك قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ مريم

وقد أخبرهم عيسى عليه السلام عن نفسه وقال لهم : إنى وإياكم عبيد الله ، فاعبدوه ،ولا تعبدوا ربًا سواه ، وإنى أوصيكم باتباع الطريق المستقيم ، الذى أمرنى به ربى ، فإن من سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ؛ لأنه دين الله الحق ، الذى أمر به أنبياءه ، وفى ذلك قوله تعالى على لسان عيسى :

﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

مريم

ولقد كفر النصارى الذين زعموا وادعوا أن المسيح بن مريم هو الله ، فقال المسيح عليه السلام لبنى إسرائيل : ياقوم اعبدوا الله ربى وربكم ،وسيدى وسيدكم ، الذى خلقنى وإياكم ، وإن من يشرك بالله غيره ، فقد حرَّم الله عليه الجنة أن يسكنها فى الآخرة ، وحكم أنّ مصيرَه ومأواه نار جهنم ، وأن من ظلم نفسه ، وفعل غير ما أباح الله له وعبد غيره ، فليس له من أنصار ينصرونه يوم القيامة

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِى إِسْرَاءِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ

بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾

المائدة

وزعم فريق آخر من النصارى أن الله ثالث ثلاثة ، أى واحد يعم ثلاثة أقانيم: أبًا والدا غير مولود، وابنًا مولوداً غير والد ، وزوجًا متبعة بينهما ، فرد عليهم الله مكذبا لهم فيما قالوا من ذلك :

ما من اله إلا إله واحد ، أى مالكم معبود أيها الناس إلا معبود واحد، وهو الذى ليس بوالدلشئ، ولا مولود من أحد؛ بل هو خالق كل والد ومولود ، فإن لم ينتهوا عن هذا القول،والادعاء من أن الله ثالث ثلاثة،ليصيبن الذين كفروا منهم بالله عذاب عظيم، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المائدة

ثم رجع فحذرهم من هذا الكفر ، ودعاهم إلى التوبة من عقيدتهم هذه، وطلب المغفرة، ليصفح بذلك عنهم، ويعفو عما سلف من إجرامهم فقال تعالى :

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ المائدة

ثم أخبرهم وبين لهم، أن المسيح بن مريم ولدته أمه ولادة الأمهات أبناءهن، وذلك من صفات البشر لا من صفة خالق البشر، وإنما هو رسول الله كسائر رسله، الذين كانوا قبله فمضوا وخلوا، وآجرى على يديه ما شاء أن يجريه من الآيات والعبر، حجة له على صدقه، وعلى أنه رسول الله أرسله لهداية بنى إسرائيل، وأن أمه صديقة كسائر النساء الصديقات وأنهما كانا يأكلان كجميع الناس، أى أنهما كانا فى حاجة إلى ما يغذيهما وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بنى آدم وأن من كانت هذه صفته لا يكون إلٰهاً؛ ولو كانا إلٰهين لما لازمتهما الحاجات الجسدية لقوله تعالى:

﴿ مَا ٱلْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ المائدة

ثم يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: انظر يا محمد كيف نبين لهؤلاء الكفرة النصارى الآيات الدالة والحجج القاطعة على بطلان ما يقولون فى أنبياء الله؟ وفى افترائهم على الله، وادعائهم بأن له ولداً وشهادتهم لبعض خلقه بأن لهم ربًّا وإلٰهاً، ثم لا يرتدعون عن كذبهم وباطل قولهم، ثم انظر يا محمد كيف يكذبون، وعن طريق الهدى يضلون؟

كيف ؟

﴿ أُنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ اُنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

المائدة

ثم أشار إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهؤلاء الكفرة من النصارى الزاعمين أن المسيح ربهم، والقائلين إن الله ثالث ثلاثة أيصح أن تعبدوا من دون الله ما لا يستطيع أن يضركم ولا أن ينفعكم؟ والله يسمع ما تقولون،ويعلم ما تبدون وما تكتمون، وهو الذى خلقكم ورزقكم، وهو يحييكم ويميتكم

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعاً وَاللّٰهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ المائدة

وقد لام الله أهل الكتاب وحذرهم وقال لهم : يا أهل الكتاب (أى يا أهل الانجيل من النصارى) لا تغلو فى دينكم،فلا تتجاوزوا الحق فى دينكم فتفرطوا فيه ، ولا تقولوا فى عيسى غير الحق ، فإن قولكم فى عيسى أنه ابن الله افتراء منكم على الله؛ لأن الله لم يتخذ ولداً فكيف يكون عيسى وغيره من خلقه أبناء له ؟ ولا تقولوا على الله الا الحق، وفى ذلك قوله تعالى:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللّٰهِ إلاَّ الْحَقَّ ﴾ النساء

ثم أكد بأن المسيح عيسى بن مريم هو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فقال لهم : أيها الغالون فى دينكم من أهل الكتاب الزاعمون بأن عيسى بن الله اعلموا أن عيسى بن مريم لا نسب له غير ذلك، وهو رسول الله أرسله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه

(وسماه المسيح لمسحه وتطهيره من الذنوب والأدناس التى تكون فى الآدميين كما يمسح الشىء من الدنس الذى يكون فيه فيطهر منه)

وهو كلمته التى ألقاها و بشر بها مريم وأعلمها بها، وروح منه أى ونفخة منه، لأن جبريل عليه السلام نفخ فى درعها بأمر الله إياه فلذلك نسب اليه أنه روح من الله وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ النساء

ثم أمر الله بالايمان به، و بألا يقولوا أنه ثلاثة أقانيم كما يزعمون (الأب والابن، وروح القدس) فقال لهم : فآمنوا بالله ورسله ، وصدقوا ياأهل الكتاب بوحدانية الله وربوبيته، وأنه لا ولد له، وصدقوا رسله فيما جاءهم به من عند الله، وفيما أخبروكم به إن الله واحد لا شريك له، وليس له صاحبة، ولا ولد له، فإنه (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ولا تقولوا الأرباب ثلاثة :

ثم توعدهم وقال لهم : أيها القائلون ان الله ثالث ثلاثة انتهوا وارجعوا

عما تقولون من الزور والشرك بالله ، فان الانتهاء عن ذلك خير لكم من الادعاء به،الذى تنالون عليه من الله العقاب العاجل لكم ، وذلك قوله تعالى :

﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾
النساء

ثم قال لهم: اعلموا بأن الله إلٰه واحد، ومن كان له ولد فليس بإلٰه. ولكن الله الذى له الألوهية والعبادة إلٰهٌ واحد ،معبود لا ولد له، ولا والد، ولا صاحبة ، ولا شريك

ثم نزه جل ثناؤه نفسه، وعظمها ورفعها عما قال فيه أعداؤه الكفرة فقال:
﴿ إِنَّمَا اللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَه مَافِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ النساء

أى جل وعز وتعظم وتنزه أن يكون له ولد أو صاحبة؛ لأن جميع ما فى السموات ومافى الأرض عبيده وملكه، وأنه رازقهم، وأنهم فى حاجة إليه
وقال البوصيرى رحمه الله ردًّا على مدعى التثليث :

خَبِّرونا أهل الكتابين مِن أيـ ـنَ أتاكُم تَثليثُكم والبَداء؟
ما أتى بالعقيدتين كتابٌ واعتقاد لا نصَّ فيه ادِّعاء
والدَّعاوى إن لَم تُقيموا عليها بيِّنَاتٍ أبناؤها أدعياء
ليت شِعرى ذِكرُ الثلاثةَ والوا حد نقص فى عدكم أم نَماء ؟

كَيفَ وحّـدتم إلٰها نفى التّو حيد عنه الآباء والأبناء؟
أإله مُركب ما سمعنا؟ بإله لذاته أجزاء

المعنى — اعلمونا أيها النصارى واليهود، ما منشأ قولكم إن الله ثالث ثلاثة ؛ الأب ، والابن ، وروح القدس ؟ وما منشأ إدعائكم أن نسْخَ التوراة بالانجيل يستلزم البَداء ، أى ظهور المصلحة فى الشىء لله بعد خفائها عليه تعالى .

وفى تفسير الجلالين (إن الله ثالث ثلاثة) أى أحد آلهة ثلاثة والاثنان عيسى وأمه مريم

وفى شرح الهمزية للسنباطى : إنهـم يريدون بالأب الوجود ، وبالابن العلم ، وبروح القدس الحياة

وفى تفسير الخازن : الأقانيم (أى الأصول) ثلاثة : أُقنوم الأب وهو ذات الله ؛ وأقنوم الإبن وهو عيسى ، وأقنوم روح القـدس ، وهو الحياة الحالة فيه

ثم شرع يرد على دعواهم فقال : ليتنى أعلم سر هذا التناقض العجيب، فأنتم تارة تثبتون تعـدد الإله بقولـكم : إن الله ثالث ثلاثة، فتحققون الزيادة، وتارة تثبتون عدم تعدده بقولـكم: الله واحد، فتحققون النقص وقد تعجب منهم بقوله : كيف وحَّدتم إلٰها نفى التوحيد عنه ، الآباء والأبناء ، اللذين أثبتموهما فى دعواكم التثليث ؟

فإن قالوا : هو واحد مركب من ثلاثة أجزاء كل منها إلٰه

قلنا : ما سمعنا بإله لذاته أجزاء ، كل منها إله؛ لأنه لو وجد لكان الإله متعددا، لقوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء

وقد أعلن الله كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وكفرهم فى تغطيتهم الحق، وتركهم نفى الولد عن الله عز وجل، وادعائهم أن المسيح هو الله فرية وكذبا عليه ، وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد للنصارى الذين افتروا علىّ، وضلوا عن سواء السبيل بقولهم إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل لهم : مَن يملك ويطيق أن يدفع أمر الله إن أراد أن يهلك المسيح وأمه ومن فى الأرض جميعًا ؟ وهو المتصرف فى عباده ، وله ما فى السموات والأرض وما بينهما، يهلك من يشاء، ويبقى من يشاء، لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع، وأنه هو المعبود القادر على كل شىء، والمالك لكل شىء

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة

الحواريون أعوان وأنصار عيسى

فلما وجد عيسى من بنى إسرائيل الذين أرسله الله إليهم جحوداً لنبوته، وتكذيباً لقوله، وصداً عما دعاهم إليه من أمر الله، قال: مَن أنصارى وأعوانى على المكذبين بحجة الله والمولين عن دينه؟

قال الحواريون (وهم الذين آمنوا بعيسى وكان عددهم اثنى عشر): نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون، ومصدقون بنبوتك

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

آل عمران

وزيادة فى التأكيد قالوا: ربنا آمنا وصدقنا بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك، وصرنا أتباع عيسى على دينك الذى بعثته به، وأعوانه على الحق الذى أرسلته به إلى عبادك، فاكتبنا يا ربنا، وأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقرّوا لك بالتوحيد والعبودية، وصدقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا يا الله فى عدادهم، ومعهم فيما تمنحهم من كرامتك، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصدّ عن سبيلك وحادَ عن أمرك ونهيك

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ آل عمران

وأما الذين كفروا بعيسى من بنى إسرائيل،وأحسَّ عيسى منهم الكفر فقد مكروا، وكان مكرهم الذى وصفهم به الله الاتفاق والمؤامرة على قتله ، ولكن الله قد خيَّب ظنهم،وأحبط مكرهم،بانقاذ عيسى منهم والله خير المتصرفين فى أمورهم

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ آل عمران

إذ قال الله لعيسى عليه السلام : ياعيسى، إنى مميتك بعد استيفائك أجلك،ورافعك إلى محل كرامتى،ومطهرك ومنظفك، ومخلصك ممن كفر بك،وجحد ما جئتهم به من الحق من اليهود وسائر الملل

﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ آل عمران

ثم أشار الله تعالى بأنه جاعل الذين اتبعوا عيسى عليه السلام،وساروا على منهاجه ، وملته فى الاسلام ، وفطرته، فوق الذين جحدوا نبوته وخالفوا بسلوكهم المعوج جميع أهل الملل ، فكذبوا بما جاء به عيسى وصدوا عن الإقرار به إلى يوم القيامة،وذلك قوله تعالى :

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ آل عمران

آراء بعض المفسرين فى رفع عيسى إلى السماء

وقد اختلف المفسرون فى تفسير آية الرفع ، فبعضهم قال: إن المراد بالوفاة النوم،لأن النوم هو الميتة الصغرى، وقد روى عن الربيع:أن الله تعالى رفع عيسى إلى السماء وهو نائم رفقًا به ، وبعضهم قال : إن المراد من الآية إنى مستوف أجلك،ومميتك حتف أنفك،لا أسلط عليك من يقتلك ، وإن الآية كناية عن عصمته من الأعداء

والأخبار المأثورة جاءت ناطقة بأن المسيح رفع إلى السماء بجسده وروحه، وأنه حى فيها ، وأنه ينزل فى آخر الزمان،ويقتل المسيح الدجال

الحكم بين المختلفين

ثم قال لهم : أيها المختلفون فى عيسى مصيركم يوم القيامة إلىّ فأحكم بينكم، وأقضى بين جميعكم فى أمر عيسى بالحق فيما كنتم فيه تختلفون فى أمره

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ آل عمران

فأما الذين كفروا وجحدوا نبوتك يا عيسى، وخالفوا ملتك وكذبوا

بما جئتهم به من الحق، وقالوا فيك الباطل، فإنى أعذبهم عذابا شديداً فى الدنيا بالقتل والسّباء، والذلة والمسكنة؛ وأما فى الآخرة فبنار جهنم خالدين فيها أبداً، وما لهم من ناصرين، ولا تقبل منهم شفاعة؛ وأما الذين آمنوا بك يا عيسى وصدقوك: وأقروا بنبوتك، وبما جئتهم به من الحق من عندى، ودانوا بالاسلام الذى بعثتك به، وعملوا بما فرضت من فرائض على لسانك، وشرعت من شرائع، وعملوا الصالحات، فأوفيهم أجورهم، وأعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة أجراً كاملا لا يبخسون منه شيئًا، ولا ينقصونه، فان الله لا يحب من ظلم غيره حقًا له، أو وضع شيئًا فى غير موضعه

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ آل عمران

٨ — معجزة نزول المائدة

من المعجزات العظيمة التى أتى بها عيسى عليه السلام نزول المائدة، وسبب ذلك أن الحواريين أصحاب عيسى قالوا له: ياعيسى هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ فقال لهم: راقبوا الله

أيها القوم وخافوا أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا ، فان الله لايعجزه شىء أراده ، وفى شككم فى قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به ، فاتقوا الله أن ينزل بكم نقمته إن كنتم مؤمنين ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

المائدة

قال الحواريون : إنما قلنا ذلك ، وسألناك أن تدعو لنا ربك ، لنأكل من المائدة ، فنعلم يقينا قدرته على كل شىء ، وتطمئن قلوبنا ، ونستقر على وحدانيته وقدرته ، ونعلم أنك لم تكذبنا فى خبرك إنك رسول مرسل ونبى مبعوث ، ونكون على نزول المائدة ممن يشهد أن الله أنزلها حجة لنفسه علينا فى توحيده ، وقدرته على مايشاء ، ومعجزة لك على صدقك فى نبوتك

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ المائدة

فأجاب عيسى القوم إلى ماسألوه ، ودعا ربه وقال : اللّهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء لنتخذ يوم نزولها عيداً نعظمه نحن ومن يجىء

بعدنا ، ونعبد ربنا ونصلى له فى هذا اليوم ، كما يعمل الناس فى أعيادهم ؛ ولتكون علامة وحجة منك يارب على عبادك فى وحدانيتك ، وفى صدقى على أنى رسول اليهم بما أرسلتنى ، وأعطنا من عطائك ورزقك فانك يارب خير من يعطى ويرزق ، وأجود من يتفضل ويجود

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ المائدة

فاستجاب الله دعاء عيسى وقال : إنى منزلها عليكم أيها الحواريون فمطعمكم منها ، فمن يجحد بعد إنزالها عليكم ، وإطعامكم منها رسالتى إليه وينكر نبوة نبيِّ عيسى صلى الله عليه وسلم ، ويخالف طاعتى فيما أمرته ونهيته، فانى أعذبه عذابًا لا أعذبه أحداً من العالمين، غير أهل المائدة

﴿ قَالَ اللهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ المائدة

اعتراف عيسى عليه السلام بعدم اتخاذه وأمه إلٰهين

لما رفع الله عيسى ابن مريم إليه قالت النصارى واليهود ماقالت وزعموا أن عيسى أمرهم باتخاذه وأمه إلٰهين من دون الله ، فسأله الله

عن قوله هـذا وقال له : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلٰهين من دون الله ؟ قال عيسى : تنزيها لك يارب وتعظيماً أن أفعـل ذلك أو أتكلم به، ليس لى أن أقول ذلك ، لأنى عبد مخلوق ، وأمى أمة لك ، فهل يكون للعبد والأمة إدعاء ربوبية ؟ إن كنت قلته فقد علمته

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَايَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ المـائدة

ثم قال : إنك يارب لايخفى عليك ما أضمرته فى نفسى مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحى ، فكيف بما قد نطقت به وأظهرته بجوارحى ؟ فلو كنتُ قلت للناس اتخذونى وأمى إلٰهين من دون الله ، لـكنتَ علمته لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به ، فكيف بمـا قد نطقت به ؟ وانى لا أعلم ما أخفيته عنى ، فلم تطلعنى عليه؛ لأنى إنما أعلم من الأشياء ما أعلمتنيه ، إنك أنت العالم بخفيات الأمور ، التى لا يطلع عليها سواك ولا يعلمها غيرك

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ المائدة

ثم قال : إنى ما قلت لهم إلا الذى أمرتنى به من القول أن أقوله، وهو

اعبدوا الله ربى وربكم ، وقد كنت شاهداً عليهم ،وعلى أفعالهم وأقوالهم ، وأنا بين أظهرهم

فلما قبضتنى اليك ،كنتَ أنت الحفيظ عليهم دونى ، وأنت تشهد على كل شئ؛ لأنه لايخفى عليك شئ لقوله تعالى :

﴿ مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ المائدة

وفى هذا دليل ، على أن الله تعالى إنما عرَّفه أفعال القوم ، ومقالتهم بعد ماقبضه اليه وتوفاه

ثم قال : إن تعذب هؤلاء الذين قالوا ذلك ، وادعوا هذا الإدعاء ، فانهم عبادك مستسلمون لك ، لايمتنعون مما أردت بهم ، ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً ولا أمراً تعاقبهم به؛ وإن أردت أن تغفر لهم بهدايتك إياهم إلى التوبة والاسلام ، فتستر عليهم ، فإنك أنت العزيز فى انتقامه ممن أراد الانتقام منه ، لايقدر أحد يدفعه عنه ، الحكيم فى هداية من هدى من خلقه الى التوبة ، وتوفيق مَن وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المـائدة

خاتمة المسيح عليه السلام

وما قيل بشأن قتله وصلبه

سبق أن ذكرنا أن الحواريين هم أنصار وأصحاب عيسى عليه السلام الذين آمنوا به ؛ أما سائر اليهود، فانهم لم يكتفوا بعدم الايمـان به بل اتفقوا وعزموا على قتله كما قتلوا يحيي وزكريا عليهما السلام من قبل. فلما استقر رأيهم على ذلك،شكوا أمره الى الوالى الموجود وقتئذ،وزينوا شكواهم بمـا يستدعى اهتمام الوالى بادعائهم عليه أنه يقول : انه ملك اليهود ، وأنهم لايقرون بملك سوى (قيصر رومية) فأرسل الوالى جنداً للقبض على المسيح عيسى بن مريم ، فلما أتوا الى بيته،ولم يبق إلاالقبض عليه ، والمسيح قد اهتم لهـذا الأمر وخشى أن ينالوه بالأذى ، أنقذه الله من أيديهم وطهره منهم ، وألقى شبهه على شخص آخر ، علم فيما بعد أنه تلميذه الخائن ، وعرفته الأناجيل بأنه (يهوذا الاسخريوطى) الذى تواطأ مع الـكهنة على الدلالة عايه بأجر

وصار بحيث ان كل من رآه لايشك فى أنه يسوع ، فأخذ وصلب وقتل ونجا الله المسيح من شرهم

وقد أعلم الله تعـالى المسيح بمـا سيتم ، وشاع فى الناس أن يسوع

الناصرى قتل بعد أن صلب ، وما قتلوه وما صلبوه؛ ولكن شبّه لهم ، وما قتلوه يقينا؛ بل رفعه الله اليه ، وطهره من الذين كفروا ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ النساء

وبعد أن رفعه الله اليه انبث الحواريون أصحابه فى جهات الأرض يدعون الناس الى دينه ، وهو توحيد الله فيما يرضيه ، إلا أن الدنيا كانت مملوءة بالشرك والكفر ، فلم يستطيعوا أن يصدعوا بالأمر فظل الدين العيسوى أكثر من ٣٠٠ سنة محجوبا كالأسرار ، فى صدور الأحرار ، وكان أصحابه يعبدون الله تعالى سراً فى مواضع أعدوها لذلك تحت الأرض أو فى الكهوف والمغارات ؛ أما أمه مريم فقد عاشت بعد رفعه ست سنين، ثم توفيت وكان عمرها ٥٣ ثلاثا وخمسين سنة ، ودفنت ببيت المقدس بالكنيسة المعروفة (بالجسمانية)

ويقال: انه حىّ إلى الآن ، وأنه ينزل قبل قيام الساعة ويحكم بشريعة

سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا يدع كافرا حتى يسلم ، ويمكث أربعين سنة ، ثم يحج ويزور قبر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يموت ويدفن بجواره صلى الله عليـه وسلم ، ويؤيد ذلك الحديث الشريف الآتى :

حديث شريف : عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأنبياء إخوة لعلات ، وأمهاتهم شتى ، ودينهم واحد ، وإنى أولى الناس بعيسى عليه السلام ، لأنه لم يكن بينى وبينه نبى ، ويوشك أن ينزل فيكم ويحكم حكماً عدلاً ، وأنه نازل على أمتى ، وهو خليفتى عليكم ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فانه رجل مربوع القامة ، وهو الى الحمرة والبياض ، سبط الشعر كان رأسه يقطر وان لم يصبه بلل ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، ويسكن الروحاء حاجا معتمرا ، يقاتل الناس على الاسلام حتى يهلك فى زمانه الملل كلها غـير الاسلام ، وتكون السجدة واحدة لله تعالى ، ويهلك فى زمانه المسيح الدجال ، ويقتل على يديه وعلى يد أصحابه ، ويقع الأمن فى الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الصبيان بالحيّات لايضر بعضهم بعضاً

ثم يلبث فى الأرض ماشاء الله (وقيل أربعين سنة) ثم يتوفى فى

المدينة ويصلى عليه المسلمون، ويدفنونه إلى جانب قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه،فطوبى لأبى بكر وعمر يحشران بين نبيين

وقد بشر عيسى عليه السلام بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال لقومه بنى إسراءيل : يابنى إسراءيل إنى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة التى أنزلت على موسى، وأبشركم برسول يجىء من بعدى اسمه (أحمد)

ولما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالبينات ، وهى الدلالات التى أتاه الله حججًا على نبوته قالوا : هذاسحر مبين ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَابَنِى إِسْرَاءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ الصف

٢٥ — محمد صلى الله عليه وسلم

(سيد المرسلين وخاتم النبيين)

خلاصة سيرته

ليس القصد بسط القول فى السيرة النبوية والشمائل المحمدية ، فإن لذلك كتباً كثيرة فياضة بها ، وإنما الغرض الالمام بخلاصة سيرته عليه الصلاة والسلام ، إثبات نبوته ورسالته بالآيات القرآنية، ودحض أقوال السفهاء والمشركين والمنافقين فيما يزعمونه ، وبيان بعض معجزاته وشمائله صلى الله عليه وسلم

نسبه الشريف

١ — من جهة أبيه

نبينا العربى، الهاشمى القرشى، أكرم العرب نسباً،وأشرفهم حسباً،هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (واسمه شيبة الحمد) ابن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ؛ وينتهى نسبه الشريف الى اسماعيل ابن ابراهيم أبى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ويدعى أبا العرب المستعربة

وقد نظم بعضهم الجميع فقال :

«نبينا محمد قد ينتسب قطعاً لعبدالله عبدالمطلب»

«فهاشم عبد مناف فقصى كذاحكيم مرة كعب لؤى»

«فغالب فهر فمالك يلى نضر كنانة خزيمة انقل»

«مدركة الياس أيضاً فمضر نزارهم معد عدنان انحصر»

٢ ـ من جهة أمه

وأمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم . الذى هو الجد الخامس للنبى صلى الله عليه وسلم ؛ وهى من أشرف بيوت قريش

وهذا هو النسب الشريف المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين

وقال فى نسبه الإمام البوصيرى رحمه الله صاحب البردة والهمزية فى مدح خير البرية المتوفى سنة ٦٩٥ هـ بالاسكندرية وضريحه بها مشهور ومعروف :

«نَسَبٌ تَحسبُ الْعُلَا بِحِلَاهُ قَلَّدتها نُجُومَهَا الجوزاء(١)»

---

(١) الجوزاء : اسم لبرج فى السماء

«حَبَّذا عِقدُ(١) سُودَدٍ(٢) وفَخَارٍ أَنتَ فيه اليتيمةُ(٣) العَصماءُ(٤)»

أدوار حياته صلى الله عليه وسلم

١ — الدور الأول (من ولادته الى النبوة)

ميلاده

حملت به أمه السيدة آمنة بنت وهب فى أول رجب . وبعد شهرين من حمله توفى أبوه عبد الله فى المدينة عند أخواله بنى النجار وعمره ١٨ سنة عقب ذهابه الى تجارة فى الشام

ولما تمت مدة الحمل ولد عليه الصلاة والسلام بمكة فى دار أبى طالب فى صباح يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول ، وقيل صباح اليوم التاسع من هذا الشهر الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام على ماحققه المرحوم محمود باشا الفلكى

وهذا اليوم يوافق السنة الأولى من حادثة الفيل المشهورة ، أى العام الذى حبس الله فيه الفيل عن دخول مكة لهدم الكعبة كما كان يقصد (أبرهة) قائد جيش النجاشى الحبشى فدمرهم الله أشنع تدمير وجعل كيدهم فى تضليل ، إكراما لولادته عليه الصلاة والسلام

---

(١) العقد : القلادة من الجوهر (٢) السودد : السيادة (٣) اليتيمة : التى لاشبيه لها فى جنسها (٤) العصماء : من العصمة وهى الحفظ والمنع

وقد جاء ذكر هذه القصة فى القرآن الكريم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾

وقال فى حمله وولادته (حسان بن ثابت) الشاعر العظيم :

«تالله ماحملت أُنثى ولا وضعت مثل الرسول نبىّ الأمة الهادى»

وقال المرحوم شوقى بك فى قصيدته الشهيرة بالهمزية :

«وُلد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء»

وقد دلت الروايات الصحيحة على اتصافه صلى الله عليه وسلم حين ولادته بصفات تليق بمقامه السامى ، إذ وُلد نظيفاً ليس عليه من أقذار الولادة شىء ، مدهونا مكحولا ، يعلوه النور والبهاء ، واضعاً يديه على الأرض ، رافعاً رأسه ، رامقاً بطرفه الى السماء

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

«رَافعاً رأسهُ وفى ذلك الرَّفـعِ الى كُلِّ سُودَد إيمَـاءُ»

«رَامقاً طرفهُ السَّماءَ ومَرْمَى عَينِ مَن شأْنهُ العُلوُّ العَلاَءُ»

أى برز عليه السلام الى هذا الوجود رافعاً رأسه ، وفى ذلك الرفع الذى هو أول فعل وقع منه عليه السلام (إيماء) وإشارة الى كل رفعة

وسعادة . ورامقًا ببصره الى جهة العلو إيماءً الى أنه لايقصد إلَّا أعلى المراتب ، إذ مَن شأنه العلو لايقصد إلا جهاته

«وتَدَلَّتْ زُهْرُ النُّجُومِ إلَيهِ فأضاءت بِضَوئها الأَرجاءُ»

أى قد دنت الكواكب المضيئة يوم ولادته فأضاءت بأنوارها النواحى . والدليل على ذلك أنه روى البيهقى عن فاطمة الثقفية أنها قالت لما حضرتُ ولادة النبى عليه الصلاة والسلام : رأيت البيت حين وضع قد امتلأ نوراً ، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علىَّ

وروى: أن أمه صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نوراً ظهرت به قصور الشام فرأتها وهى فى مكة ؛ وهذا معنى قول البوصيرى رحمه الله

«وترَاءت قُصُورُ قَيْصَر بالرُّو م يَرَاها مَن دَارُهُ البَطحَاءُ»

العجائب التى ظهرت يوم ولادته

وفى ليلة ولادته شاهد الكثيرون مايدل على شرفه وعظيم قدره من العجائب والآيات الباهرات ، فلما أشرقت أنواره عليه السلام تتابعت بشائر الهاتفين بولادته ، وثبت السرور بطلعته ، وأشرف على السقوط (إيوان كسرى) وانشق وسقطت شرفاته ، وخمدت نار فارس أى انطفأت النار التى كانوا يعبدونها و يوقدونها ألف سنة ، ولم

يطفأ لها لهب؛ لأنهم كانوا مجوساً ، وكان ذلك غماً و بلاءً عليهم لخمود تلك النيران العظيمة ؛ وقد أدركوا أن ذلك لأمر عظيم حدث فى العالم ، وهو ولادة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وكذا ظهر فى تلك الليلة جفاف عيون الفرس ؛ كأن الماء الذى كان بها فاض وأطفأ نيران بيوت الفرس

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« ليَـلةُ المولد الذى كان للدِّ ين سُرور بيوَمه وازدهاء »

« وتوَالَت بُشرَى الهواتفِ أن قَد وُلِدَ المُصطفى وحقَّ الهناء »

« وتداعى إيوان كسرى ولوْلا آيةٌ مِنكَ ماتداعى البِناء »

« وغدَا كلٌّ بيتِ نار وفيـهِ كُرْبة مِن خُمودِها وَبلاء »

« وعُيونٌ للفُرس غارت فهل كا نَ لنيرانهم بهـا إطفاء؟ »

« مَولد كان مِنهُ فى طالع الـكُفـرِ وبالٌ عليهمُ ووَبَاء »

وقد امتازت وفازت السيدة آمنة بما لم تفز به النساء من الفخار حتى حواء ، ولذا قال البوصيرى رحمه الله :

« فهَنيئًا به لِآمنـةَ الفضـلُ الذى شُرِّفت به حوَّاء »

« يومَ نَالتْ بوَضعه ابْنَةُ وهب مِن فَخَار مَالَمْ تنَلْهُ النساء »

الاحتفال بمولد النبى عليه الصلاة والسلام

لم يكن فى سنة العرب أن يحتفلوا بتاريخ ميلاد أحد منهم ؛ ولم تجر بذلك سنّة بين المسلمين فيما سلف ، والثابت من كتب التاريخ وغيرها أن عادة الاحتفال بميلاد النبى عليه الصلاة والسلام من العادات المحدثة، ويقال: أن هذه العادة أحدثها (المظفر أبو سعيد) صاحب (اربل) من البلاد التابعة لولاية (الموصل) وذلك فى القرن السابع من الهجرة، ثم انتشرت هذه العادة فى الأقطار ، وقد فاقت مصرنا فيها جميع الأمصار

وفى الزمن الغابر كانَ أهلُ مكة فيما - رواه بعض المؤرخين - يتبركون بزيارة الموضع الذى ولد فيه النبى عليه الصلاة والسلام فى يوم ميلاده

هذا وان الاحتفال بمولد النبى عليه الصلاة والسلام ليس بالبدعة كما يدعى بعضهم؛ بل هو سنة حسنة جرى عليها الخلف سنة عن السلف الصالح

والقصد من هذا الاحتفال هو أن يجعل الناس يوماً من أيام العام خالصا لتذكار محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر أبناء آدم بركة على الإنسانية ، وأبقاهم فى صحائف التاريخ أثراً بتلاوة الذكر الحكيم ، وقصة سيد المرسلين ، وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، ولو أنصف المسلمون لجعلوا احتفالهم يوم ميلاد نبيهم أن يخرجوا الى الصحراء

بين الرمال والأحجار فيستعيدوا هنالك ذكرى النبى الأمى الأمين الذى أنشأ من قبائل العرب البدوية خير أمة أخرجت للناس ، ورفع راية القرآن المنصورة مابين زمزم والحطيم

أما العادة المتبعة فى الاحتفال بمولد النبى الشريف من إقامة الزينات والسرادقات، وتسيير الموكب، ودق الطبول والمزمار، والاشارات، وسماع الأغانى والأناشيد ، والرقص فى حلقات الذكر ؛ و إطلاق الصواريخ والألعاب النارية فى الهواء ، وخروج النساء المتبرجات لرؤية الاحتفال والموكب ، واختلاط الرجال والشبان بالنساء والفتيات ؛ كل ذلك مخالف لآداب الشريعة السمحة ، ومما يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب الابتعاد عنه

تسميته صلى الله عليه وسلم

لما وُلد عليه الصلاة والسلام أرسلت أمه السيدة آمنة لجده تبشره فأقبل مسروراً وسمَّاه

«محمداً»

ولم يكن هذا الإسم شائعا من قبل عند العرب ، ولكن أراد الله أن يحقق ماذكره فى الكتب التى جاءت بها الأنبياء ، كالتوراة والانجيل فألهم جده أن يسميه بذلك انفاذاً لأمره

رَضَاعه وفطامه وماحصل فيهما من المعجزات

أرضعته أمه السيدة آمنة نحو ثلاثة أيام ثم (ثويبة) مولاة عمه أبى لهب ، ثم (حليمة السعدية) التى اختارها جده عبد المطلب مرضعة له ، وهى من قبيلة هوازن المشهورة فى العرب بالعراقة وكمال الشرف ، واسم زوجها (أبو كبشة) وهو الذى كانت قريش تنسب له الرسول صلى الله عليـه وسلم حينما يريدون الاستهزاء به فيقولون : « هذا ابن أبى كبشة » يكلم من السماء ، فأخـذته حليمة السعدية ورجعت به الى قبيلتها و بقى عندها الى الفطام و بعده بسنتين أيضاً

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« و اذا سَخَّر الإلٰه أُناساً لِسَعيد فإنَّهُم سُعداءُ »

وقد ظهرت فى زمان رضاعه أشـياء شبيهة بالمعجزات لايستطاع إخفاؤها وكتمانها عن الأبصار ، اذ امتنعت عن رضاعه المرضعات وأعرضن عنه ليتمه وقلن : إنما تركناه لأننا نبغى المعروف والخير من أباء الرُّضعاء ، وأما الأم والجد فليسا كذلك . وقد أتته حليمة السعدية وكانت فقيرة ، ولا يرضى أحد من الأهالى أن يعطيها ابنه لارضاعه لأن الفقر يستلزم قلة الأكل وهو يستلزم قلة اللبن المضر بالرضيع عادة ، فأرضعت النبى عليه السلام لبانها ، و بسبب هـذا الارضاع لهذا المولود

السعيد المحمود ، درَّ عليها وبنيها الشياه من الغنم ألبانهـا وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ، وبعد أن كانت هذه الشياه هزيلات لالبن فيها أصلاً ، فببركته عليه السلام استحالت حالها فى أقرب وقت وليس بها هزال، وكثر مرعى الدواب عند حليمة بعد يبس الأرض من الـكلأ والزرع ، وذلك بسبب أنها ترضع النبى عليه السلام بلبنها، ولأن البركة والرحمة تحلان حيث يكون الرسول صلى الله عليه وسلم

وفى ذلك يقول الامام البوصيرى رحمه الله :

«وبَدَتْ فى رَضَاعه مُعجزاتٌ ليسَ فيها عَن العُيون خَفَاءُ»

«إذ أبَتهُ لِيتمهِ مُرضِعاتٌ قلن مَافى اليَتيم عنَّا غَناءُ»

«فأَتَته من آل سَعْدٍ فتاةٌ قدْ أَبتْها لِفقرها الرُّضَعاءُ»

«أرضعته لِبَانهـا فسَقتها وَبَنيها أَلْبَانَهُنَّ الشَّاءُ»

«أَصْبحتْ شُوَّلاً عِجَافاًوأمست مَابها شَائِلٌ ولا عَجْفَاءُ»

«أَخْصَبَ العيشُ عندها بَعدَمحلٍ إذ غَدَا للنبى منها غِذاءُ»

وبعد أن انتهت مدة رضاعه لبلوغه سنتين أتت به جده عبد المطلب وقد أصابها من أجل فطامه التألم الشديد لمـا شاهدت من توالى الخيرات وتتابع البركات بسبب إقامته عندها

«وأتَت جَـدَّه وقد فصَلَته وبها مِن فصاله البُرَحاءُ»

حادثة شق الصدر

وحصل له عليه الصلاة والسلام حادثة مهمة وهى شق الصدر واخراج حظ الشيطان منه ، فأحدث ذلك عند حليمة خوفا فردته الى أمه وجده وحدثتهما قائلة :

بينما هو عليه الصلاة والسلام وإخوته (أولادها) فى بَهم لنا خلف بيوتنا إذ أتى أخوه يعدو فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فاضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (يحركانه بسوط) فخرجت أنا وأبوه فوجدناه ممتقعا لونه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مَالَكَ يابنى ؟ فقال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فقال أحدهما لصاحبه : أهو هذا ؟ قال : نعم . فأقبلا يبتدرانى فاضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئا فأخذاه وطرحاه ولا أدرى ماهو ؟

وفى ذلك يقول البو صيرى رحمه الله :

«إذ أحاطَتْ به مَلائكةُ اللّـه فَظَنَّتْ بأَنَّهم قُرَناءُ»
«وَرَأى وَجْدَها بهومن الوجـدِ لَهِيبُ تُصْلَى به الأَحْشاءُ»
«فَارَقَتْهُ كُرهًا وكان لدَيْها ثاويًا لايُمَلُّ منه الثَّواءُ»
«شُقَّ عن قلبه وأُخرِجَ منه مُضغةٌ عند غسله سَوْداءُ»

وقد أعاد جبريل عليه السلام ذلك الشق الى ما كان عليه بامرار يده على محله فالتأم ، ثم أودع فيه من الايمان والحكمة والأسرار مالم ينشر وما لم تحط به أخبار ؛ لأنه لايعلمه إلا الله تعالى ؛ ثم وضع الخاتم بين كتفيه ، ولم يكن الخاتم لنبى قبله

وفى ذلك قول البوصيرى رحمه الله :

«خَتَمته يُمنى الأمين وقد أو دِع مَالم تُذَع لَهُ أَنْبَاء»

«صَان أسرارهُ الخِتامُ فلا الفَـضُّ مُلِمٌّ به ولا الإفضَاء»

وفاة والدته و كفالة جده وعمه له

لما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم أربع سنين قامت والدته بحضانته ثم أخذته وتوجهت به الى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار . وبينما هى عائدة أدركتها الوفاة فى الطريق فماتت (بالأبواء) وهى أقرب الى المدينة ، فحضنته (أم أيمن) وهى جارية ورثها عن أبيه تسمى (بركة الحبشية) وكفله جده عبد المطلب فكان يرق له ، ويعطف عليه أكثر من أولاده لما كان يظهر عليه من علامات النجابة الدالة على أنه سيكون له شأن عظيم فى المستقبل ، ولذا كان يكرمه غاية الإكرام ، ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفى بعد ثمانى سنوات من عمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه

أحسن كفالة ، وكان شهماً كريماً سمحاً جواداً ، لكنه كان فقيراً لايملك كفاف أهله ، فحسنت حاله وصلح رزقه ، وكانت كفالته لابن أخيه خيراً وبركةً عليه وعلى أولاده

ولقد اعتنى بابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم عناية كبرى حتى قدمه على أولاده فى كل شىء عملا بوصية أبيه عبد المطلب له حيث قال فيها :

« أوصى أباطالب بعَدى بذى رحم (محمد) وهو فى الناس محمود »
« فاحذَر عليه شِرار الناس كلهم والحاسدين فان الخير محسود »

ولذا كان به رحيماً وعليه غيوراً لأنه رآه بعيداً عن كل شائبة نقص ولهو مما تميل اليه الأطفال عادة

وكان محمد صلى الله عليه وسلم فى مدة كفالة عمه مثال القناعه والبعد عن السفاسف وصغار الأمور التى يشتغل بها الأطفال. فكان اذا حضر الأكل أقبل عليه الأولاد يختطفونه وهو قانع بما يسره الله له

نشأته وكسبه من يده وثمرة عمله

نشأ صلى الله عليه وسلم فى قومه يتيماً فقيراً ومات والده فى سن الشباب ولم يترك له مالاً سوى خمسة جمال وبضع نعاج وكان صلى الله عليه وسلم قد ألف رعى الغنم مع إخوته فى الرضاع فصار يرعى لأهل مكة

غَنَمهم فيتوافر لكافله أبى طالب مايأخذ من ذلك من أجر ؛ ولذا كان مثال الزهد والقناعة والرأفة والرحمة

ولما شبَّ عليه السلام كان يتجر مع شريك له يدعى (السائب) ويأكل من ثمرة عمله وكسبه، وقد اشتهر بالصدق والأمانة فى تجارته والإخلاص فى عمله

تأديب الله تعالى له صلى الله عليه وسلم وحسن خلقه

قد أدبه الله تعالى أدبًا لم يفز به غيره من اليتامى الذين قلَّ مالهم ومال القوّام عليهم ، مع كونه بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعُشَرَاء من حلفاء الوثنية ، ولم يكن له أستاذ يهذبه ، ولا مثقف يؤدبه ، وإنما هى عناية الله تحفظه وترعاه ؛ وقد حدث عن نفسه قائلا :

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى »

فاكتمل صلى الله عليه وسلم وهوعلى أتم ماتتزكى به روح، وأكمل ماتتحلى به نفس، من جميل الصفات ، وحميد الخصال ، وقد قال فى شأنه البوصيرى رحمه الله :

« كَفاكَ بالعلم فى الأُمىِّ مُعجزةً فى الجاهلية والتأديبِ فى اليُتُمِ »

رحلته الأولى الى الشام

لما بلغ سنه عليه السلام اثنتى عشرة سنة أراد عمه وكفيله أبو

طالب السفر بتجارة الى الشام فاستعظم الرسول صلى الله عليه وسلم فراقه فرَق له وأخذه معه (وهذه هى الرحلة الأولى) ولم يمكثوا فيها إلا قليلا وكان معهما أبو بكر الصديق رضى الله عنه

وقد أشرف على رجال القافلة وهم بقرب (بُصْرَى) قرية على الحدود بين بلاد الشام و بلاد العرب (بحيرا الراهب) فسألهم عما رآه فى كتبهم المقدسة ، من بعث نبى من العرب فى هـذا الزمن ؟ فقالوا : انه لم يظهر للآن

وهـذه العبارة كثيراً ما كان يلهج بها أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل مبعث الرسول

ويقول الله تعالى فى ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾
البقرة

وقد عرفه (بحيرا) بعلامات النبوة وتحققها وقال :سيكون لهذا الغلام شأن عظيم وسيبعثه الله رحمة للعالمين ، وناشد عمه أن يرده الى مكة خوفًا عليه من اليهود والنصارى ، فرجع ورجع معه أبو بكر وزودهم (بحيرا) شيئًا من الزبيب والكعك

حرب الفجار

لما بلغ سنه عليه السلام عشرين سنة حضر حرب الفجار ، وهى حرب كانت بين قريش وحلفائها، وبين قيس وحلفائها، فى موضع يسمى (نخلة) بين مكة والطائف ، وكان يجمع السهام لأعمامه فيها ويرمى معهم ، فكلَّل الله عملهم بالنصر على أعدائهم الذين انتهكوا إذ ذاك حرمات البيت المعظم عند جميع العرب . ولوقوعه فى الشهر الحرام

ولما استحل فيه من حرمات مكة التى كانت مقدسة عند العرب سمى (يوم الفجار) وكانت الدائرة تدور على قيس حتى انهزم بعض قبائلها وانتهت بالصلح ، وألف الله بين قلوبهم وأزاح عنهم الضلالات بانتشار نور الاسلام بينهم بَعْدُ

رحلته الثانية الى الشام

لما بلغ سنه عليه السلام خمسًا وعشرين سنة سافر الى الشام للمرة الثانية

وذلك أن خديجة بنت خويلد الأسدية (من بنى أسد بن عبدالعزى ابن قصى) كانت سيدة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها، وتضاربهم فيه

فلما سمعت عن محمد صلى الله عليه وسلم من الأمانة ، وصدق الحديث ، مالم تعرفه فى غيره، حتى سمّاه قومه الأمين ، استأجرته ليخرج فى مالها الى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره

فسافر على بركة الله مع غلامها (مَيْسرَة) وكانت تظله الغمامة فى اليوم الصائف ، لايشترك معه أحد من القافلة ، كما روى ذلك (ميسرة) فعرفه الراهب (نسطورا) وقال : هذا خاتم النبيين ، ليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج

ثم حضروا سوق (بُصْرَى) وباعوا واشتروا ، فربحوا ربحًا عظيماً وحقق الله ما امتن به عليه بقوله :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى ﴾ الضحى

زواجه من خديجة

لما عاد عليه السلام مع(ميسرة) من الشام وقدما مكة ورأت السيدة خديجة ربحها العظيم وتحققت أمانته وصدقه ، وشاهدت بعض علامات النبوة عليه، وأخبرها غلامها (ميسرة) بكلام الراهب وبما رآه بنفسه من ظلة الغمامة له ، بعثها ذلك الى التزوج به

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

«وَرَأَتهُ خديجةٌ والتُّقى والزُّ هدُ فيــه سَجِيَّةٌ والحَيَاءُ»

« وأتاها أنَّ الغمامة والسَّرْ حَ أَظَلَّتهُ مِنهُما أَفياءُ »

«وأَحاديثُ أنَّ وَعدَ رسول اللّــهَ بالبَعثِ حانَ مِنه الوَفَاءُ»

«فَدَعَته الى الزواج وَمَا أحسَــنَ مَايَبْلُغُ المُنى الأَذ كِيَاءُ»

وأرسلت اليه تخطبه لنفسها ، وكان سنها نحو الأربعين ، وسنُّه خمسا وعشرين سنة ، وكانت من أفضل قريش حسبًا ونسبًا ، وأوسعهم مالاً وثروةً ، وكم من عظيم خطبها وبذل لها الأموال الطائلة فأبت ؛ ولـكن لما خطبها أبو طالب لمحمد صلى الله عليه وسلم أجابت ، لمـا توسمته فيه من التقوى والزهد والحياء والخير والبركة ، فتزوجها عليه الصلاة والسلام بعد (أبى هاله) المتوفى عنها وعن ولدها (هند) الذى هو ربيب المصطفى ؛ ولم يتزوج غيرها حتى توفيت ، فتزوج بعدها عائشة أم المؤمنين

وكان عليه الصلاة والسلام يذكرها طول عمره بكل خير حتى كانت السيدة عائشة تغار منها ولم ترها ، قالت من حديث لها : فذكرها يوما من الأيام فأخذتنى الغيَرة ، فقلت له صلى الله عليه وسلم : هل كانت إلَّا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟ فغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال :

« لاوالله ماأبدلنى خيراً منها : آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء » رواه مسلم

بناء البيت الحرام

لما بلغ عليه الصلاة والسلام خمسا وثلاثين سنة جاء سيل جارف فصدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها من قبل فشرعت قريش فى بناء الكعبة

وأعدوا لذلك النفقة اللازمة وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم ، وكان العباس ورسول الله محمد عليه الصلاة والسلام فيمن يحمل الحجارة من أشراف مكة

وعندما أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه اختلفوا وتنافسوا تنافساً شديداً كاد تكون عاقبته الحرب لولا أن (أبا أمية بن المغيرة المخزومى) عم خالد بن الوليد الذى كان أكبرهم سناً قال: لاتختلفوا، وحكموا بينكم مَن ترضون بحكمه

فقالوا : نكل الأمر لأول داخل من باب (بنى شيبة)

فكان هذا الداخل هو الأمين المأمون عليه الصلاة والسلام فاطمأن

الجميع له لما يعهدون فيه من الأمانة ، وصدق الحديث ، وقالوا : هذا الأمين رضيناه، هذا محمد ؛ لأنهم كانوا يتحا كمون اليه إذ كان لايدارى ولا يمارى

فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ؛ ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا الى موضعه ، فأخذه عليه السلام ووضعه فيه بيده الشريفة ، وهكذا انتهت هذه المشكلة التى كثيراً ما يكون أمثالها سبباً فى انتشار حروب هائلة طاحنة بين العرب

ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا ، لأن البيت الحرام قبلة العرب ، وكعبتهم التى يحجون اليها ، فكل عمل فيه يعظم به الفخر والسيادة ، ومن المعلوم أنه أول بيت وضع للعبادة بشهادة القرآن الكريم ؛ قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلعَالمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ آل عمران

ولقد امتن الله عليهم بذلك فى تنزيله بقوله :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ العنكبوت

سيرته فى قومه قبل البعثة

كان عليه السلام أحسن قومه خُلقًا ، وأصدقهم حديثًا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، حتى كان أفضل قومه مُروءة ، وأكرمهم مخالطة ، وخيرهم جواراً ، وأكثرهم حلمًا ،حتى شهد له بذلك ألد أعدائه (النضر بن الحارث) من بنى عبد الدار حيث يقول :

قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر ، لا والله ماهو بساحر

بُغضه للوثنية من أول حياته

قد حفظه الله فى صغره من أعمال الجاهلية ، وبُغضت اليه الأوثان بغضًا شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالاً ولا عيداً مما يقوم به عبّادها ، ولم يسجد للأصنام ، وكان يقول عليه السلام :

لما نشأت بُغّضت الىَّ الأوثان ، وبُغّض الىَّ الشعر ، ولم أهمَّ بشىء مما كانت الجاهلية تفعله

وكان عليه السلام لا يأكل مما كان يذبح على النُّصب (وهى

حجارة تنصب تصب عليها دماء الذبائح وتعبد) وحرم على نفسه شرب الخمر مع شيوعه فى قومه شيوعاً عظيماً

وذلك كله من الصفات التى يحلى بها الله أنبياءه، ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقى وحيه ، فهم معصومون من الأدناس والأرجاس، قبل النبوة و بعدها

تعبده صلى الله عليه وسلم

لما بلغ عليه السلام ثمانياً وثلاثين سنة كان « صلى الله عليه وسلم » يرى الضوء والنور ، ويسمع صوت النداء ولا يرى أحداً ، وحبب اليه الخلاء للعبادة والتفكر

فكان صلى الله عليه وسلم معتاداً العبادة، والابتعاد عن الناس ، وذلك شأن الكرام الذين لا يألفون إلا ما يناسب كرمهم ، فكان يخلو بغار (حِراء) جبل قريب من مكة فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، فتارة عشر ليال ، وتارة أكثر ، يأخذ لذلك زاده فاذا فرغ رجع الى بيته فتزود لمثلها

وكأن الله سبحانه وتعالى قد ألهمه ذلك لتصفو نفسه، ويتوجه روحه الشريف الى عالم غير عالم المادة ، ويستعد لما سيكرمه الله به من تلقى وحيه ، وانقاذ خلقه مما كان فيه مثل قومه من الشرور والآثام وعبادة الأصنام

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

«أَلِفَ النُّسْكَ والعِبادَة والخَلْـوَةَ طِفْلاً وهكذا النُّجباءُ»

«وإذا حلَّت الهداية قَلْبـاً نَشِطَتْ فى العبادة الأعضاءُ»

١ — تبشير التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم

أنزل الله التوراة على موسى محتوية على الشرائع التى تناسب أهل ذاك الزمن، ونوَّه فيها بذكر كثير من الأنبياء الذين علم الله أنه سيرسلهم ، فمما جاء فيها تبشيراً برسول الله الكريم محمد عليه الصلاة والتسليم خطابا لسيدنا موسى عليه السلام :

« وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه، ويكلمهم بكل شىء آمره به. ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا الذى أنتقم منه ، فأما النبى الذى يجترىء علىَّ بالكبرياء ويتكلم باسمى بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل ، وإذا أحببت أن تميز بين النبى الصادق والكاذب فهذه علامتك ، ان ماقاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ولذلك لاتخشاه »

٢ — تبشير الانجيل بمحمد صلى الله عليه وسلم

بشر عيسى عليه السلام قومه فى الانجيل (بالفار قليط) ومعناه

قريب من محمد أو أحمد ويصدقه فى القرآن قوله تعالى فى سورة الصف :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد ﴾ وسبق ذكرها فى ختام قصة سيدنا عيسى

وقد وصف المسيح عليه السلام هذا (الفار قليط) بأوصاف لا تنطبق إلاَّ على نبينا عليه الصلاة والسلام فقال : انه يوبخ العالم على خطيئته ، ويعلمهم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل مايسمع ؛ وهذا ماورد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ النجم

٢ — الدور الثانى (من النبوة الى الهجرة)

نزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم وبدء النبوة

لما بلغ عليه السلام سن الكمال وهو أربعون سنة أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً ليخرجهم من ظلمات الجهالة الى نور العلم والعرفان ، وكان ذلك فى أول فبراير سنة ٦١٠ من ميلاد المسيح عليه السلام كما أوضحه المرحوم محمود باشا الفلكى ونزل عليه الوحى كما سيأتى :

كيف كان بدء الوحى ؟ (كما ذكر فى البخارى)

سأل الحرث بن هشام رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحيانًا يأتينى مثل صَلْصَلَة الجرس وهو أشدُّه على فيفصم عنى ، وقد وَعَيتُ عنه ماقال : وأحيانًا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول

قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزِل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيَفصِم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا

وقالت عائشة أم المؤمنين : أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرُّؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار (حِراء) فيتحنَّثُ فيه ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله وكان يتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءهُ الحق وهو فى غار (حِراء)

فجاءه الملك فقال : أُقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : أُقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : أُقرأ . فقلت

ما أنا بقارئ ؛ فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ (١)

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على (خديجة بنت خويلد) رضى الله عنها فقال : زملونى، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلاَّ والله مايخزيك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرَّحم ، وتحملُ الكلَّ ، وتكسبُ المعدوم ، وتَقرى الضَّيف ، وتعين على نوائب الحق

فانطلقت به خديجة حتى أتت به (ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى) ابن عم خديجة ، وكان امرأً تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمى ، فقالت له خديجة : يابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى

---

(١) وحدث التاريخ بأن مجىء الملك اليه صلى الله عليه وسلم كان فى يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان من السنة الحادية والأربعين من مولده ، وكذلك فى مثل هذا اليوم وقعة بدر وسمى يوم الفرقان، إقرأ : «وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » فما ذكر فى التاريخ استنبطه بعض أهل العلم من هذه الآية

الله عليه وسلم خبر مارأى . فقال له ورقة : هذا الناموس (الشريعة) الذى أَنزَلَ الله على موسى ياليتنى فيها جذعًا(شابًا جلداً)ياليتنى أكون حيًّا إذ يُخرجك قَومُك

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوَ مُخرجيَّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ماجئتَ به إِلَّا عُودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى

فترة الوحىّ

فتر الوحى مدة لم يتفق عليها المؤرخون وأرجح أقوالهم فيها أربعون يومًا ليشتد شوق الرسول للوحى ، وقد كان، فان الحال اشتدت به عليه السلام حتى صار كلما أتى ذروة جبل بداله أن يرمى نفسه منها حذراً من قطيعة الله بعد أن أراه نعمته الكبرى وهى اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه، فيتبدى له الملك قائلا : أنت رسول الله حقًا ليطمئن خاطره، ويرجع عما عزم عليه، حتى أراد الله أن يظهر للوجود نورالدين فعاد اليه الوحى

عود الوحى

عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال فى حديثه : بينما أنا أمشى إذ سمعت صوتًا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحِراء

جالس على كرسى بين السماء والأرض فرُعبتُ منه فرَجَعتُ فقلت : زملونى ؛ فأنزل الله تعالى

﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أى حذر الناس من عذاب الله ان لم يرجعوا عن غيهم وما كان يعبد آباؤهم ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أى لاتشرك مع ربك فى ذلك غيره ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ لتكون مستعداً للوقوف بين يدى الله ، إذ لايليق بالمؤمن أن يكون نجساً مستقذراً ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أى اهجر أسباب الرجز وهو العذاب بأن تطيع الله وتنفذ أمره ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ أى لاتهب أحداً هبة وأنت تطمع أن تستعيض من الموهوب له أكثر مما وهبك ، فهذا ليس من شأن الكرام ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أى اصبر على ماسيلحقك من أذى قومك حينما تدعوهم إلى توحيد الله، فحمى الوحى وتتابع

الرد على منكر الوحى مناماً

وقد قال المرحوم البوصيرى لمن ينكر الوحى :

«لاتُنكِرِالوَحْىَمِنْ رُؤْياهُ إنَّ له قلباً إذا نامت العينان لم يَنَمِ »
«وذاك حين بلوغ من نبوَّته فليسَ يُنكَرُ فيه حالُ مُحْتَلِمِ »
«تبَارَكَ اللهُ ماوَحىٌ بمكتَسَبٍ ولا نبىٌّ على غيبٍ بمُتَّهِمِ »

أى لاتنكر أيها المعاند وقوع الوحى اليه صلى الله عليه وسلم فى منامه فإنه إذا نامت عيناه فلا ينام قلبه ، كما صح فى حديث الصحيحين عنه أنه قال : إن عينىّ تنامان ولا ينام قلبى

ورؤياه الوحى وقت وصوله الى النبوة ، وذلك على رأس أربعين سنة من مولده صلى الله عليه وسلم ، وهذا الزمان لاتنكر فيه رؤيا محتلم الوحى فى قومه

وليس الوحى مُكتسبًا لنبى من الأنبياء ، وليس نبى بمُتهم فيما يخبر به عن غيب ، فان جميع الأنبياء (صلوات الله عليهم) معصومون من الزلل

إثبات الوحى المحمدى

مما يؤيد ويثبت نزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم فى بدء نبوته ماجاء فى القرآن الكريم وهو القول الفصل القطعى الذى لاينهض لمعارضته أحد ، قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَايَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ

لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ الشورى

أى ما كان لانسان أن يكلمه الله كما يكلم بعضكم بعضا بكلام مسموع من طريق التموجات الهوائية ، بل يكلمه وحيا ، أى من طريق الوحى ، بأن يلقى فى قلبه مايشاء القاءه اليه ، أو أن يكلمه من وراء حجاب أو يرسل له ملكا يبلغه مراده ، لأنه متعال عن صفات المخلوقين ، حكيم يفعل بمقتضى الحكمة ، فيؤدى مراده على أحكم الأساليب ، وكذلك فعلنا معك يامحمد فأوحينا اليك قرآنا من أمرنا هو بمثابة الروح تحيا به القلوب ما كنت تدرى يامحمد ما الكتاب ؟ وما الايمان ؟ ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى طريق قويم ، طريق الله الذى له كل مافى الوجود ، يتصرف فيه بما تقتضيه حكمته العالية ثم اليه ترجع أمور العالم بارتفاع الوسائط والتعلقات

ثم قال فى سورة أخرى :

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ القصص

أى ما كنت ترجو ولا تؤمل يا محمد أن يلقى اليك الكتاب من وحى ربك فتكون نبياً رسولا؛ ولكنه أُلقى اليك رحمة من ربك وفضلا عليك وعلى عباده ، فلا تكونن معيناً للكافرين، ولا يمنعك الكفار يا محمد من تلاوة آيات الله ، والعمل بها بعد إذ أنزلت اليك، وادع الى عبادة ربك وتوحيده ، ولا تكونن من المشركين به

بيان أن الوحى لم يكن قاصراً على محمد ، بل كان للأنبياء عامةً

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد : يامحمد، إنا أوحينا اليك،أى أنزلنا اليك بالنبوة ، كما أوحينا إلى النبيين الذين تقدموك، وهم نوح، وابراهيم واسماعيل ، واسحٰق ،و يعقوب، والأسباط ، وعيسى، وأيوب ، ويونس وهارون، وسليمان ، وآتينا داود الكتاب (المسمى زبورا)

وقد أرسلنا الى الأمم رسلا آخرين غير من ذكرنا، منهم مَن أخبرناك عنهم، ومنهم من لم نخبرك عنهم ، وكلَّم الله موسى تكليماً أى وخاطب الله موسى بكلامه خطابا

وجميع هؤلاء الرسل جاءوا مبشرين للذين آمنوا بالله ورسله بالجنة، ومنذرين للكافرين بالله ورسله بالنار ،لئلا يكون للناس على الله حجة فيقولون : لو كنت أرسلت الينا رسولا لآمنا ؛ وكان الله عزيزاً حكيماً ، أى لم يزل ذاعزة فى انتقامه ممن خالفه وعصاه ،حكيماً فى تدبير أموره

وذلك قوله تعالى :

﴿ إِنا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كما أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً ﴾

النساء

الآيات الدالة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم وإثبات رسالته ودعوته للناس عامة

إن الأدلة القاطعة، والحجج البالغة، على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وإثبات رسالته، ودعوته عامة للناس، هى واضحة جلية فى القرآن الكريم، وهى كثيرة جداً ويكفى أن نذكر منها بعض الآيات الآتية مع شرح كل آية منها :

١ — ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ولَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ الأحزاب

يقول الله تعالى ذكره : أيها الناس، ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكنه رسول الله، وخاتم النبيين ،الذى ختم النبوة به، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة ، وكان الله بكل شىء من أعمالكم ذا علم لايخفى عليه شىء منها

٢ ـ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سبأ

يقول الله تعالى ذكره : وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك (قريش) خاصَّة ؛ ولكنا أرسلناك للناس عامَّة، العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيراً تبشر بالثواب وحسن الجزاء من أطاعك، ونذيراً تنذر بالعقاب وسوء العذاب من كذبك؛ ولكن أكثر الناس لايعلمون أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر

٣ ـ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ الفتح

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إنا أرسلناك يا محمد شاهداً على أمتك بما أجابوك ، فيما دعوتهم اليه مما أرسلتك به اليهم من شريعة ، ومبشراً لهم بالجنة إذا أجابوك إلى ما دعوتهم

إليـه من الدين القيم ، ونذيراً لهم تنذرهم بعذاب الله إن هم أعرضوا وتولوا عما جئتم به من عند ربك ؛ وأنتم أيها الناس قد أرسلنا إليكم هذا الرسول الكريم لتؤمنوا بالله ورسوله، ولتطيعوا الله ، وتوقروه وتعظموه وتصلوا له بالغدوات والعشيات ، أى فى الصباح والمساء

٤ ـ ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ الأحزاب

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يامحمد إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ، بابلاغك إياهم ما أرسلناك به من الشريعة والدين ، ومبشراً لهم بالجنة إن هم صدقوك وعملوا بما جئتهم به من عند ربك ، ونذيراً لهم بالنار أن يدخلوها فيعذبوا بها إن هم كذبوك وخالفوا ماجئتهم به من عند الله، وداعياً إلى توحيد الله، وإقرار الألوهية له، وإخلاص الطاعة لوجهه، دون كل من سواه من الآلهة والأوثان ، كل ذلك بأمره إياك ، وسراجاً منيراً، وضياء لخلقه يستضيئون بالنور الذى آتيتهم به من عند الله

وبشر يا محمد أهل الإيمان بالله بأن لهم من الله ثواباً عظيماً وفضلاً

كبيراً على طاعتهم إياه، ولا تطع قول كافر ولا منافق ، فتسمع منه دعاءه إياك إلى التقصير فى تبليغ رسالات الله إلى من أرسلك بها إليه من خلقه، وأعرض عن أذاهم لك، واصبر عليه، ولا يمنعك ذلك عن القيام بأمر الله فى عباده، والتعود لما كلفك به، وفوض إلى الله أمورك، وثق بأنه يكفيك جميع من دونه، حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، وحسبك بالله وكيلاً وقيماً بأمورك ، وحافظاً لك من أذى أعدائك

٥ - ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ الفتح

يقول الله تعالى ذكره : هو الذى أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بالبيان الواضح ، ودين الحق، وهو الاسلام الذى أرسله داعيا خلقه إليه ليظهره على سائر الأديان ،ليبطل به الملل كلها، حتى لا يكون دين سواه ، وذلك كان كذلك حتى ينزل عيسى بن مريم ليقتل المسيح

الدجال، فحينئذ يبطل الأديان كلها، غير دين الله الذى بعث به محمداً صلى الله عليه وسلم، ويظهر الاسلام على الأديان كلها، وأشهدك يا محمد على ذلك وحسبك بالله شاهداً

ويقول الله تعالى ذكره: محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه من أصحابه الذين هم معه على دينه أشداء على الكفار، غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم، رفيقة قلوبهم بعضهم لبعض، لينة أنفسهم، هينة عليهم، تراهم ركعاً أحيانا لله فى صلاتهم، سجداً أحيانا، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، فيدخلهم جنته، وعلامتهم فى وجوههم من أثر السجود فى صلاتهم

وهذه الصفة التى وصف بها أتباع محمد صلى الله عليه وسلم الذين معه، وهى أيضاً صفتهم فى التوراة وفى الانجيل، صفة زرع أخرج نباته ثم يكثر وينمو، فهم كذلك حينما دخلوا فى الإسلام كانوا قليلى العدد، ثم أخذوا يتزايدون، ويدخلون فى دين الله أفواجاً، جماعة بعد جماعة، حتى كثر عددهم، ليغيظ الله بهم الكفار، كما أن الزرع يبتدىء قليلاً ضعيفاً ثم يقوى ويغلظ، ويستقيم فى عوده، فيعجب الزراع

وهذا مثل ضربه الله لمحمد صلى الله عليه وسلم فيه يقول:

بعث النبى صلى الله عليه وسلم وحده، ثم اجتمع إليه ناس قليلون يؤمنون به، ثم يكون القليل بعد ذلك كثيراً، ويستغلظون ليغيظ بهم الكفار

وقد وعد الله الذين آمنوا ، وصدقوا الله ورسوله ، وعملوا بما أمرهم به الله من فرائضه التى أوجبها عليهم، عفواً ومغفرةً عما مضى من سالف ذنوبهم ،وسىء أعمالهم ، ووعدهم ثواباً جزيلاً ، وذلك هو الجنة

الأمر بتبليغ الرسالة واتباع كتاب الله

أمر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بابلاغ قومه واليهود والنصارى من أهل الكتاب ما أنزل اليه من ربه قائلا له : يامحمد بلِّغ ما أنزل اليك من ربك، فان تركت ذلك ولم تفعل وكتمت شيئاً من الرسالة كنت كأنك لم تبلغها

ثم آمنه وطمأنه على حياته وقال له : لاتخف على حياتك من مواجهة هؤلاء القوم بما ينكرونه، فان الله حافظك وعاصمك من إيذائهم ، وان الله لايوفق للرشد من حاد عن طريق الحق ، وجحد ماجئته به من عند الله ، ولم ينته إلى أمر الله وطاعته ، وذلك قوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفعَلْ فمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ المائدة

ثم قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واتبع يامحمد ما أنزل

اليك من كتاب ربك ، واستمر عل تلاوته ، واتباع مافيه من أمر الله ونهيه ، والعمل بحلاله وترك حرامه ، واعلم بأنه لامغير ولامبدل لكلماته التى أنزلها عليك ، وأنت يامحمد لن تجد من دون الله ملجأ؛ لأن قدرة الله محيطة بك، وبجميع خلقه ،لايقدر أحدعلى الهرب من أمر ربه وذلك قوله تعالى :

﴿ وَاُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَامُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ الكهف

ثم أمره بالتقوى والطاعة ، بأداء فرائضه وواجب حقوقه ، والانتهاء عن محارمه ، وعدم مجاوزة حدوده ، وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين الذين يظهرون الايمان بالله وهم أشد أعداء الله ، وأعداء رسوله ، والله عليم بما تكنه نفوسهم ، وما تنطوى عليه أخلاقهم ، حكيم فى تدبير أمره على جميع خلقه

كما أنه أمره باتباع ما أوحاه إليه من القرآن ، والعمل بما فيه من الأوامر والنواهى ، والله خبير بأمور عباده لايخفى عليه شىء منها ، وهو مجازيهم عليها بما وعدهم من الثواب والعقاب ؛ وذلك قوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اُتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً وَاُتَّبِعْ مَايُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللهَ

كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ الأحزاب

قيامه بتبليغ الرسالة والدعوة

قام عليه الصلاة والسلام بأعباء الرسالة والتبليغ إمتثالا لأمر ربه يدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده ، وترك عبادة الأصنام ، وحيداً فريداً ، لاجند ينصره ، ولا معين يؤازره ، وما هو إلا وحى الله تعالى يُمِدُّه ، وتوفيقه يسدده ، وعنايته تؤيده ، والحال أن فى أهل الكفر قوة تامة ، وتعصباً عليه ، وامتناعاً عن اتباعه ، ومع ذلك كان لايخاف فى الله لومة لائم ، وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« ثم قام النبىُّ يدعو الى اللـه وفى الكفر نجدة وإباء »

« أمماً أُشرِبَت قلوبُهُمُ الكُفرَ فداء الضَّلال فيهم عَياء »

أى أخذ عليه السلام يدعو أقواماً تمكن من قلوبهم حب الكفر ، حتى صاروا لا يقبلون غيره ، فصاروا كالداء العضال الذى لا يرجى شفاؤه ، أخذ يدعو أقواماً فيهم جفاء وغلظة ، اتبعوا ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأوثان ، وامتنعوا عن عبادة الرحمٰن

الدعوة سرًّا ، وأول من أسلم

قام عليه الصلاة والسلام فى أول أمره يدعو الناس سراً حذراً

من مفاجأة العرب بأمر شديد كهذا فيصعب استسلامهم اليه فأخذ يدعو الى عبادة ربه ، ويُرشدهم الى النور الذى جاء به ، وترك عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، وترك المعاصى التى كانوا يفعلونها من شرب الخمر ، وقتل الأولاد ، والكذب والخيانة ، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة التى تسبب الخلاف والنفور والحروب ، فأجاب دعوته ذوو العقول السلمية منهم وبادروا بتصديقه

وكان أول من سطع نور الاسلام على قلبه (السيدة خديجة بنت خويلد) زوجة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ونفر ممن كانوا يحبون الحق ولم يداخلهم الحقد والحسد ، ولم يصدهم عناد ولا استكبار كزيد بن حارثة وغيره من السابقين الأولين

فكان أبو بكر الصديق صديق الرسول ، يدعو للاسلام من يثق به من رجال قريش ، فأجابه جمع منهم : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو عبيدة ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو ذر الغفارى ، وغيرهم من أشراف قريش . ولم يكن مع رسول الله سيف يضرب به أعناقهم حتى يطيعوه صاغرين ، وليس معه ما يرغب فيه حتى يترك هؤلاء العظماء آباءهم ، وذوى الثروة منهم ، ويتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولسان حالهم يقول

ماقاله البوصيرى رحمه الله فى قصيدته :

«وَرأينَا آياتهِ فاهتدينا وإذا الحَقُّ جاءَزَال المِرَاءُ»

الدعوة جهراً

وبعد ثلاث سنين من رسالته عليه الصلاة والسلام أمره الله سبحانه وتعالى أن يجهر بالدعوة ، فأنزل عليه قوله تعالى :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الحجر

أى بلغ يامحمد قومك ما أرسلت به، وكف عن حرب المشركين بالله وقتالهم ، وذلك كان قبل أن يفرض الله عليه جهادهم ومحاربتهم ، ثم نسخ فيما بعد بقوله تعالى :

﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ التوبة

فصدع عليه الصلاة والسلام بالأمر ، وبدّل الدعوة سراً بالدعوة جهراً ، ممتثلا أمر ربه واثقا بوعده ونصره ، فصعد على جبل الصفا ، وجعل ينادى : يابنى فهر ، يابنى عدى ، لبطون قريش ، فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر الخبر ، فجاء أبو لهب بن عبد المطلب وقريش ؛ فقال عليه الصلاة والسلام :

« أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟

قالوا : نعم ماجربنا عليك كذبا

قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد

فقال أبو لهب : تبًا لك ألهذا اجتمعنا ؟ فأنزل الله فى شأنه :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾

المسد

ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ الشعراء

أى أنذر يامحمد عشيرتك من قومك الأقربين اليك وحذرهم من عذاب الله

فلما نزلت هذه الآية قام رسول الله صلى الله عليه وسلم (بالأبطح) وقال : يابنى عبد المطلب ، يابنى عبد مناف ، يابنى قصى ، ثم أخذ يدعو قريشا قبيلة قبيلة حتى أتى على آخرهم وقال لهم :

إنى أدعوكم الى الله، وأنذركم عذابه

ولما بدأ بأهل بيته وعشيرته ، شقّ ذلك على المسلمين ، فأنزل الله تعالى عليه :

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء

أى ألن جانبك وكلامك لمن اتبعك من المؤمنين

ثم أنزل عليه قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الشعراء

أى إن عصتك يا محمد عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بانذارهم وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان ، والإشراك بالرحيم الرحمن ، فقل لهم : إنى برىء مما تعملون من عبادة الأصنام ، ومعصية بارىء الأنام، وتوكل على الله العزيز فى نقمته من أعدائه ، الرحيم بمن أناب اليه وتاب عن معاصيه ، الذى يراك حين تقوم الى صلاتك تركع وتسجد ، وإنه سميع لتلاوتك ، وذكرك فى صلاتك ، عليم بما تعمل فيها

فجمعهم عليه السلام وقال لهم : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعًا ماغررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ،ولتحاسبن كما تعملون، ولتجزون بالاحسان إحسانًا ، و بالسوء سوءاً ، وانها الجنة أبداً أو النار أبداً . فتكلم القوم كلاماً لينا غير عمه أبى لهب الذى كان خصماً لدوداً

فانه قال: خذوا على يديه قبل أن تجتمع العرب، فان أسلمتموه إذاً ذللتم وإن منعتموه قتلتم؛ فقال أبو طالب: والله لنمنعه مابقينا، ثم انصرف الجمع

ثم نزل عليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾
يوسف

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يامحمد هذه الدعوة التى أدعو اليها، والطريقة المثلى التى أنا عليها من الدعاء الى توحيد الله واخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاء الى طاعته وترك معصيته، هى سبيلى، وطريقتى، ودعوتى، أدعو الى الله وحده لاشريك له، وأنا على بصيرة ونور من ذلك، ويقين وعلم منى به، أنا ومن صدقنى وآمن بى

وقل — تنزيها لله وتعظيما له —: حاشا أن يكون له شريك فى ملكه، أو معبود سواه فى سلطانه، وأنا برىء من أهل الشرك ولست منهم وليسوا هم منى

دعوته صلى الله عليه وسلم سِلْمِيَّة

أساسها الدليل والبرهان

كانت دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام الى الدين سلمية أساسها الدليل والبرهان وصحة مايدعو اليه لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ يونس

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ولو شاء ربك يامحمد لجعل الناس جميعًا مؤمنين ، فيصدقون أنك لى رسول وأن ماجئتهم به ، وماتدعوهم اليه من توحيدالله واخلاص العبودية له حق ؛ ولكن لا يشاء ذلك ؛ لأنه قد سبق فى قضاء الله قبل أن يبعثك رسولا أنه لايؤمن بك ولا يتبعك فيصدقك بما بعثك الله به من الهدى والنور إلَّا من سبقت له السعادة فى الكتاب الأول قبل أن يخلق السموات والأرض وما فيهن

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى أخبره الله تعالى أنه لايؤمن من قومه إلَّا من قد سبق له من الله السعادة فى الكتاب الأول، ولا يضل إلَّا من سبق له من الله الشقاء ؛ ثم يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

أنه لن يؤمن بك ، و يصدقك يامحمد ، ولن يتبعك و يقر بما جئت به ، إلا من شاء ربك أن يصدقك ، لا باكراهك إياه ، ولا بحرصِك على ذلك . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بك ، مصدقينَ بما جئتهم به من عند ربك ؟

ولذا قال الله تعالى له فى تبليغ الرسالة : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ الحجر

ثم قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يونس

يقول الله تعالى لنبيه : وما كان لنفس خلقتها من سبيل الى تصديقك يامحمد ، إلا بان آذن لها فى ذلك ، فلا تجهدن نفسك فى طلب هداها و بلّغها وعيد الله ، وعرفها ما أمرك ربك أن تعرفها ، ثم خلّها فان هداها بيد خالقها ، ويجعل الرجس (وهو العذاب وغضب الله) على الذين لايعقلون حجج الله ، ومواعظه وآياته ، التى دل بها جل ثناؤه على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحقيقة مادعاهم اليه من توحيد الله وترك عبادة الأصنام والأوثان

ثم قال الله تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة

نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلا مسلماً ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرههما فانهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه هذه الآية

والمعنى — بما أنه قد وضح الحق من الباطل ، واستبان لطالب الحق والرشاد وجه مطلبه ، فتميز من الضلالة والغواية ، فلا تكرهوا من أهل الكتابين ، ومن أبحت لكم أخذ الجزية منه على دينكم ، دين الحق ، فان حاد عن الرشاد بعد استبانته له ، فالى ربه أمره وهو ولى عقوبته في معاده ، ثم قال الله تعالى :

﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ البقرة

المعنى — من يجحد ربوبية كل معبود من دون الله فيكفر بالطاغوت (كل ذى طغيان على الله يعبد من دونه) ويؤمن ويصدق بالله أنه إلهه وربه ومعبوده فقد تمسك بأوثق ما يتمسك به من طلب الخلاص لنفسه من عذاب الله وعقابه

معارضة العرب لقبول دعوته ومعاداتهم له وحقدهم عليه

لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة كما أمره ربه سخرت منه قريش ، واستهزأوا به فى مجالسهم ، فكان إذا مرَّ عليهم يقولون : هذا ابن أبى كبشة يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء ، لايزيدون على ذلك

فلما عاب آلهتهم، وسفه عقولهم، وقال لهم: ياقوم لقد خالفتم دين أبيكم ابراهيم ، ثارت فى نفوسهم حمية الجاهلية ، غيرة على تلك الآلهة التى كان يعبدها آباؤهم ، فذهبوا الى عمه (أبى طالب) سيد بنى هاشم الذى أخذ على نفسه حمايته من أيدى أعدائه ، فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه، أو يكفه عما يقول ، فردَّهم رداً جميلا ، فانصرفوا عنه . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما يريده من الدعوة ، لايصده عن مراده شىء، فتزايد الأمر ،وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحثَّ بعضهم بعضاً على ذلك، ثم توجهوا الى أبى طالب مرة أخرى وقالوا له :

إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة منا ، وإنا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم ينته ، وانَّا لانصبر على هـذا ، من شَتْمِ آبائنا ، وتسفيه عقولنا ، وعيب آلهتنا

وكان عليه الصلاة والسلام اذا احتجوا بالتقليد فى استمرارهم على عدم اتباع الحق ، ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له ، وذكرهم قوله تعالى : .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

البقرة

وقول الله تعالى أيضاً :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ المائدة

وقوله تعالى أيضاً :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ لقمان

وقوله تعالى فى بيان حجتهم الداحضة :

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾

الزخرف

ولما شبههم بمن قبلهم من الأمم فى هذه الأقوال والمعارضة الدالة عل التعصب والعناد تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ الزخرف

فلما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جرَّ ذلك الى وصف آبائهم بعدم العقل ، وعدم الهداية ، فهاج ذلك غضبهم وزاد فى أضغانهم ، وقالوا لأبى طالب : إما أن تكفه ، أو ننازله القتال وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ؛ ثم انصرفوا

فعظم على أبى طالب فراق قومه ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال له : يا ابن أخى ، إن القوم جاءونى فقالوا كذا، فأبق على نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق

فظن الرسول أن عمه خاذله فقال :

« والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر مافعلت ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

ثم بكى وولى ، فقال أبو طالب : يابن أخى ، فأقبل عليه

فقال : إذهب فقل ما أحببت ، والله لاَاسلمك .

ثم أخذ الكافرون يدعون الدعوات الباطلة ويعارضونه فيما جاء به

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ الفرقان

أى وقال الكافرون : إن هذا القرآن اختلاق افتراه محمد ، وأعانه عليه اليهود أو غيرهم، بقراءتهم عليه ماسطره الأقدمون صباحاً ومساء ، وهو ينقلها بلسانه ، ويكسبها الطلاوة ببيانه ، فما أجهل هؤلاء الكفار ! لقد ارتكبوا بقولهم هذا ظلماً وزوراً

فقل لهم يامحمد : قد أنزل القرآن عالم الخفيات فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ، فلذلك لم يعجل لكم العقوبة على ماتقولون

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾ الفرقان

أى قالوا : ما لهذا الرسول يأكل كما نأكل، ويمشى فى الأسواق ؟ هلا أنزل اليه ملك يعينه على مهمته ، أو يعطى له كنز فينفق منه على

سعة ، أو تكون له جنة يأ كل منها بلا كد ولا نصب ؟

وقال هؤلاء الكفار الظالمون : ماتتبعون إلا رجلا اختل عقله بسبب سحر أصابه

ويقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فصلت

أى وقال الذين كفروا بالله ورسوله من مشركى قريش : لاتسمعوا لهذا القرآن، ولا تصغوا له، ولا تتبعوا مافيه ، والغطوا بالباطل من القول اذا سمعتم قارئه ، واجحدوا به وانكروه ، وتحدثوا وصيحوا كى لاتسمعوا لعلكم بفعلكم ذلك تصدون من أراد استماعه عن استماعه فلا يسمعه ، واذا لم يسمعه ولم يفهمه لم يتبعه، فتغلبون بفعلكم هذا محمداً

ثم قال الله جل ثناؤه : «فلنذيقن الذين كفروا» بالله من مشركى قريش الذين قالوا هذا القول «عذاباً شديداً» فى الآخرة، ولنجزينهم على فعلهم هذا وغيره من أفعالهم بأقبح جزاء نظير أعمالهم التى عملوها فى الدنيا

ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت

أى يقول الذين جحدوا بهذا القرآن وكذبوا به لما جاءهم : إن هذا القرآن لكتاب عزيز باعزاز الله ، وحفظه من كل من أراد له تبديلا أو تحريفاً أو تغييراً من إنس وجن وشيطان مارد ، فانه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أى ان الشيطان لا يستطيع أن ينقص منه حقاً ، ولا يزيد فيه باطلاً ، ولا يستطيع ذو باطل بكيده تغيير أوتبديل شئ من معانيه عما هو به ، فهو تنزيل من عند الحكيم ذى الحكمة بتدبير عباده، وصرفهم فيما فيه مصالحهم ، المحمود على نعمه عليهم

مجادلة العرب ومحاجتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قام محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى عبادة الله وتوحيده وينهاهم عن عوائد وأخلاق قبيحة مضرة بمصالحهم ، ورثوها عن آبائهم أو زينها لهم الشيطان ، وأقبح منها عادة عبادة الأوثان والنيران والأحجار والأشجار ، وأمرهم بتوحيد الله ، واعتقاد اتصافه بصفات الكمال ، وتنزهه عن صفات النقص

فعندما سمع منه العرب هذه الدعوى العظيمة نفروا من قبول دعوته، وعادوه أشد المعاداة ، وهجره منهم الأهل والخلان ، وكذبه الشيوخ والشبان ؛ ثم أخذوا فى مجادلته ومحاولته ، وجرَّهم ذلك الى طلب

الحجة منه ، وصار كل منهم يطلب برهانًا على صدق دعواه ، ويجتهد في التعجيز له في كل مايراه ، وهو صلى الله عليه وسلم يقيم لهم الأدلة الصادقة ، والحجج القوية ، ويجيب على مقترحات كل سائل

ومن أعظم الحجج التي استند عليها في إثبات دعواه ، وجعل معظم اعتماده عليها ، ماتلاه عليهم من كتاب الله العزيز ، المشتمل على التصريح بأنه رسول الله تعالى حقاً الى الناس كافةً ، وأنه صادق في كل مايبلغ عنه ، وهو متكفل ببيان الشريعة التي شرعها الله تعالى لهم ؛ فأخذ يتلو عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَايُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِـعُ إِلَّا مَايُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَـذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ الأحقاف

أي قل لهم يامحمد : ما كنت بدعًا من الرسل ، أي لست أنا أول رسول في العالم، أو لم يسبقني غيري من الرسل حتى تستغربوا رسالتي ؟ ولست أدري ماذا يفعل الله بي وبكم ، وما أتبع إلا مايوحى إلى من ربي ، وما أنا إلا منذر لكم ، أخوفكم من تماديكم في ضلالكم بلسان عربي مبين ، ثم تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لاَأَتَّبِـعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ

مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَاعِنْدِي مَاتَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ الأنعام

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يامحمد لهؤلاء المشركين بربهم من قومك، إن الله نهانى أن أعبد الذين تدعون من دونه، فلن أتبعكم على ماتدعوننى اليه من ذلك ، ولاأوافقكم عليه، ولا أعطيكم محبتكم وهواكم فيه ، فان فعلت ذلك فقد تركت محجة الحق، وسلكت على غير هدى ، ولصرت ضالاً مثلكم على غير استقامة

وقل لهم أيضا يامحمد : إنى على ثقة من ربى ، وعلى بيان وبرهان ، قد وضح لى من ربى من توحيده، وما أنا عليه من إخلاصى فى عبوديته ، من غير إشراك شىء به ؛ أما أنتم فقد كفرتم بربكم ، وليس عندى ماتستعجلون به من نعم الله وعذابه ، ولست بقادر على ذلك، وان الذى يقضى الحق فيكم ، ويفصل بينى وبينكم، هو الله الذى يبين المحق من المبطل ، وهو خير الحاكمين ، الفاصلين بين الحق والباطل

ثم تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَايُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأنعام

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يامحمد لهؤلاء الجاحـدين بنبوتك ، المعاندين لدعـوتك : لست أقول لكم إنى أنا الرب الذى له خزائن السموات والأرض ، وانى أعـلم الأشياء الخفية التى لايعلمها إلَّا علام الغيوب ، الذى لايخفى عليه شيء فى الأرض ولافى السماء ، فتكذبوننى فيما أقول من ذلك؛ لأنه لاينبغى أن يكون ربًّا إلَّا من له ملك كل شيء ، و بيده كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، وذلك هو الله الذى لا إلٰه غيره

و إنى لا أقول لكم إنى ملك ؛ لأنه لاينبغى لملك أن يكون ظاهراً بصورته لأبصار البشر فى الدنيا ، فتبصروا فيما أقول لكم من ذلك

وما أنا إلَّا بشر ،أتبع فيما أقوله لكم وأدعوكم اليـه وحى الله الذى يوحيه الىّ ، وتنزيله الذى ينزله علىّ ، فأمضى لوحيه ، وآمر بأمره ، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله على صحة قولى

وهل يستوى الأعمى عن الحق والبصير به ؟ (والأعمى هو الكافر الذى قد عمى عن حجج الله فلا يتبعها ، والبصير المؤمن الذى قدأبصر آيات الله وحججه فاقتدى بها واستضاء بنورها)

أفلا تتفكرون أيها القوم فيما أحتج به عليكم من هـذه الحجج ؟ فتعلموا صحة ما أقوله لكم ، وأدعوكم اليـه من فساد ما أنتم عليه من الكفر ، واتباعكم ما كان عليه آباؤكم الأولون

فلم يعبأوا بقوله، ولم يصبخوا لدعوته، وقالوا: إنها نزعة من نزعات الجنون، فرد الله عليهم بقوله :

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ نٓ

يقسم الله تعالى بالقلم الذى خلقه، فأمره فجرى بكتابة جميع ماهو كائن الى يوم القيامة ، وهو أول ماخلق الله تعالى لكتابة القضاء والقدر ، ويقسم بما يسطرون ، أى بالكتاب الكريم (القرآن) بأنك يامحمد ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، مكذبًا بذلك مشركى قريش الذين قالوا له إنك لمجنون ، ويقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإن لك يامحمد لأجراً غير ممنون ، أى إن لك ثوابًا من الله عظيماً على صبرك على أذى المشركين إياك، غير منقوص ولا مقطوع ، وإنك يامحمد لعلى أدب راق، وذلك أدب القرآن الذى أدّبك الله به ، وهو الاسلام وشرائعه ، وسترى يامحمد، ويرى مشركو قومك الذين يصفونك بالجنون، أيّكم المجنون ؟ فإن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله كضلال كفار قريش عن دين الله وطريق الهدى ، وهو أعلم بمن اهتدى فاتبع

طريق الحق والهدى كما اهتديت أنت يامحمد فاتبعت الحق

الاحتجاج على المشركين

وتحدى رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بالقرآن

نزل القرآن الكريم تأييداً لدعوته ، وشاهداً بصدق رسالته ، كما مرَّ ذكره ، فلما رأى شدة العناء والمجادلة من العرب ، وكان فيهم الخطباء والشعراء يعقدون للقول المجامع ، ويقيمون الأسواق فيفاخرون ويناضلون ، وكانوا ذوى أنفة وغيرة واستكبار ، يأبون الضيم ، وينفرون من الصغار ، وكانوا يحرصون كل الحرص على التغلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وابطال دعواه، ومع ذلك دعاهم بأمر الله تعالى الى المعارضة، وأغراهم بالمناهضة، فتلا عليهم قول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ البقرة

هذا احتجاج من الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على

مشركى قومه من العرب ومنافقيهم ، وكفار أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فيقول الله تعالى لهؤلاء المشركين : إن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتاب فى شك مما نزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من النور والبرهان وآيات الفرقان إنه من عندى ، وإنى أنا الذى أنزلته اليه فلم تؤمنوا به ، ولم تصدقوه فيما يقول ، فأتوا بحجة تدفع حجته ، وأتوا بسورة من مثله ، يعنى من مثل هذا القرآن حقًا وصدقًا ، لاباطل فيه ولا كذب ، من كلامكم أيها العرب كما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم بلغتكم ، وادعوا أعوانكم على ما أنتم عليه، إن كنتم صادقين فى زعمكم ، فان لم تأتوا بسورة من مثله،ولن تقدروا على الاتيان بها، فاتقوا عذاب النار بتكذيبكم رسولى بما جاءكم به من عندى ، تلك النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر

ولقد كان لهم، أن يجمعوا من البلغاء والفصحاء من شاءوا كما كانوا يجتمعون للمباهاة والمباراة بالقول ، فيأتوا بشىء من مثل ما أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ليبطلوا حجته ، وليبرئوا أنفسهم من عار الغلب ويصونوا دماءهم التى سفكها عنادهم واستكبارهم لو كانوا يستطيعون

ثم لما قالوا : إن محمداً صلى الله عليه وسلم افترى هذا القرآن ، أمر الله محمداً أن يقول لهم :

« إن كنت افتريته وتخرجته على الله كذبًا، فلا تقدروا أن تدفعوا عنى إن عاقبنى الله على افترائى إياه ، وربى أعلم بما تقولون بينكم فى هذا القرآن ، وكفى بالله، شهيداً علىّ وعليكم ، بما تقولون من تكذيبكم لى فيما جئتكم به من عند الله، الذى يغفر الذنب لمن تاب ، ويرحم من أناب وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الأحقاف

ثم خاطب العرب الذين قالوا إن محمداً صلى الله عليه وسلم افترى هذا القرآن ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يونس

أى ان هذا القرآن ليس مما يمكن أن يفترى افتراء من الخلق ، ولكن الله أنزله تصديقًا لما تقدم من الكتب ، وتفصيلاً لما تقرر من العقائد والأحكام ، لاشك فيه أنه تنزيل من رب العالمين

ويقول لهم الله : إن صح زعمكم إن هذا الكتاب مما يمكن افتراؤه ، فأتوا بسورة مثله ، واستعينوا بكل من تشاءون من أهل الفصاحة والحكمة إن كنتم صادقين فى زعمكم

عجز العرب عن معارضة القرآن

لم يستطع أحد من العرب الاتيان بسورة من مثله ، فتحقق عندهم عجزهم عن معارضته ولو بأقصر سورة منه ، فأقروا بعجزهم بلسان الحال ، بل بعجز الإنس والجن ، وبأن ذاك دليل واضح على أنه من عند الله، أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم معجزةً له تدل على تصديقه وذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الاسراء

يقول الله تعالى ذكره : قل يامحمد للذين قالوا انك تأتى بمثل هذا القرآن :لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لايأتون أبداً بمثله ولو كان بعضهم لبعض عونًا وظهيراً ؛ لأن ذلك يعجزهم فلا يقدرون عليه ، وقال تعالى :

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

الحشر

يقول الله جل ثناؤه : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته يا محمد خاشعًا متذللاً متصدعًا من خشية الله على قسوته ، حذراً من ألاَّ يؤدى حق الله المفترض عليه فى تعظيم القرآن

وقد أنزل على ابن آدم وهو بحقه مستخف ، وعنه وعما فيه من العبر والذكر معرض ، كأن لم يسمعها ، وكأن فى أذنيه وقراً

ويضرب الله هذا مثلاً من الأمثال للناس ، ليعرفهم أن الجبال أشد تعظيماً لحقه منهم ، مع صلابتها وقسوتها ، ليتفكروا فيها فينقادوا للحق

فعند ذلك صدقوا جميعًا دعوى محمد عليه السلام بإرساله ، واتبعوه فيما جاء به من عند الله ، وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله فى قصيدته :

«وتحدَّى فارتاب كل مُريب أوَ يبقى مع السيول الغثاء»

«وهو يدعو إلى الإله وإن شقَّ عليه كفرٌ به وازدراء»

«ويَدلُّ الورى على الله بالتو حيد وهو المحجة البيضاء»

أى أنه عليه السلام طلب من كفار مكة أن يعارضوا ما جاء به شاهداً على نبوته وصدقه بإبداء نظيره ، وإلاَّ كانوا كاذبين مدحوضين

فعجزوا عن المعارضة وانقطعوا

تحداهم وهو لا ينى فى الدعاء إلى الاله المعبود بحق ، وإن شق عليه الكفر بالله ، والاستخفاف به ، ويدل الخلق على العلم بذاته وأسمائه وصفاته ، ويحملهم على الاقرار بوحدانيته وهو الطريق النيرة المضيئة التى لا يضل سالكها أبداً

الأذى

ما لَقِيَهُ النبى صلى الله عليه وسلم من الأذى فى سبيل نشر الدعوة

لما رأى الكفار أن المسلمين يزداد عددهم كل يوم أخذوا يسيئون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويسلطون عليه الأشرار منهم لاهانته وإيذائه هو ومن آمن معه حتى أصابهم من ذلك شىء كثير فمن ذلك :

١ ـ أن أحد كفار قريش وعظمائهم واسمه (أبو جهل) أخذ مرة حجراً كبيراً ليلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقتله ، فترقبه حتى دخل المسجد وشرع فى الصلاة ، فلما سجد همَّ أبو جهل بإلقاء الحجر عليه ، فأنزل الله الرعب والخوف فى قلب أبى جهل ، فرجع مضطرباً ممتقع اللون وألقى الحجر من يده

٢ ـ أمر أبو جهل رجلا أن يحضر فرث جزور (ما يخرج من بطن الجمل إذا ذبح) فأحضره فألقاه على النبى وهو ساجد ، فلم يجسر أحد من المسلمين أن يرفعه عنه ، لقلتهم وخوفهم من كفار قريش ، حتى أتت

السيدة فاطمة (بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ورفعته عن أبيها

٣ ـ ومن جماعة المستهزئين برسول الله (أبو لهب بن عبد المطلب) عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أشد عليه من الأباعد فكان يرمى القذر على بابه؛ لأنه كان جاراً له، فكان الرسول يطرحه ويقول : يابنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه (أم جميل بنت حرب بن أمية) فكانت كثيراً ما تسب الرسول وتتكلم فيه بالنمائم، وخصوصاً بعد ما أنزل الله فى تقبيح فعلهما وتوعدهما بالعذاب الشديد قوله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ المسد

٤ ـ جاء رجل آخر يدعى (عقبة بن أبى معيط) فوضع ثوبه فى عنق الرسول صلى الله عليه وسلم فخنقه بثوبه وهو يصلى حتى جاء سيدنا أبو بكر فدافع عنه وخلصه ودفعه عن النبى وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ غافر

٥ ـ لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة إيذاء قريش له واستهانتهم به خرج إلى قبيلة تسمى (ثقيف) يرجو منهم أن ينصروه

على قريش فردوه رداً سيئاً ، فأرسلوا خلفه سفهاءهم وخدمهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، وكذلك كانوا يفعلون مع أصحابه

فممن أوذى إيذاءً شديداً من المسلمين :

١ - (بلال) مؤذن النبى عليه الصلاة والسلام كان مملوكا لرجل من عظمائهم ، فكان يجعل فى عنقه حبلاً ويدفعه للصبيان يجرونه وكان يخرج به وقت الظهيرة إلى الرمل الشديد الحرارة الذى لو وضعت عليه قطعة من اللحم لنضجت ، ثم يضع على صدره صخرة عظيمة ويقول له :

لا تزال هكذا حتى تكفر بمحمد ، فيقول بلال : الله أحد ، ولم يكفر ، ثم اشتراه أبو بكر وأعتقه

٢ - (عمار بن ياسر) وأبوه وأمه وأخوه كانوا يعذبون بالنار ويلبسون دروع الحديد المحماة فى اليوم القائظ ، فما كان يزيدهم هذا العذاب إلا تمسكا بالدين ، وكان الرسول يقول لهم : صبراً آل ياسر ويبشرهم بالجنة

وقد عذب كثيرون غير هؤلاء بأنواع العذاب ؛ ولكنهم صبروا وثبتوا على دينهم ، فنصرهم الله على أعدائهم نصراً مؤيداً

وقد أخذت قريش تسخر منه وتؤذيه وتضيق عليه ، وهو مع قلة رجاله وماله لا يصده عن الدعوة إلى الاسلام شىء

وقد لقِيَ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من الاهانة والايذاء مالَقِيَهُ قبله الأنبياء والمرسلون والهداة المصلحون، وهو مع ذلك ماضٍ لشأنه، يدعو قومه، ويتلو عليهم ما يوحى إليه من ربه، مبشراً من آمن به واتبع سبيله، ومنذراً من خالفه وكذبه، لا يثنيه إيذاء ولا يرهبه وعيد

وكان الله سبحانه وتعالى ينزل عليه من الآيات، ما يقويه به على تحمل الصبر أمام ما كان يلاقيه من أذى قريش، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾

الاحقاف

حماية عمه أبي طالب له، والسيدة خديجة زوجه

وكان عمه أبو طالب يدافع عنه، ويحميه من غوائلهم، ويميل إلى ماجاء به من الدين، فلم يمنعه من إظهار الاسلام إلا الحياء من قومه ولذا قال :

«ولقد علمت بأن دين محمد　　من خير أديان البرية دينا»
«لولا الملامة أو حذارى سُبَّة　　لوجدتنى سمحًا بذاك مبينا»
«والله لن يصلوا إليك بجمعهم　　حتى أوسَّد فى التراب دَفينا»

ثم ازداد الحقد والعداء حين أسلم عمه حمزة وعمر بن الخطاب رضى

الله عنهما ، وكانا أشد المعارضين له ،فأعزّ الله بهما الاسلام ،وحمى بهما رسول الله عليه الصلاة والسلام، فاغتاظت قريش، وصارت تعذب كل من آمن به أشدّ العذاب

وكانت زوجه السيدة خديجة رضى الله عنها أعظم مشجع له ، ومؤاس يعطف عليه ، ويثبته ويخفف عنه دفع ما يلاقى من الأذى من أعدائه

مكثه صلى الله عليه وسلم على هذه الحال

بمكة عشر سنوات

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة على هذه الحال يدعو إلى الله تعالى غير مبال بما يناله من أذى السفهاء من قومه وتكذيبهم له ، وعلى الرغم من ذلك كان المسلمون من قريش ومن غيرهم من العرب فى ازدياد يدخلون فى دين الله أفواجاً

مطالب كفار قريش

ولما رأى كفار قريش أن ذلك الأذى لم يجدهم نفعاً؛ بل كلما زادوا المسلمين أذىً ازداد يقينهم، اجتمعوا للشورى فيما بينهم، فقال لهم (عتبة ابن ربيعة العشمى من بنى عبد شمس بن عبد مناف) وكان سيداً مطاعاً فى قومه : يا معشر قريش، ألاَ أقوم لمحمد فأُكلمه وأعرض عليه أموراً

علّه يقبل بعضها فنعطيه إياه ويكف عنا ؟

فقالوا : يا أبا الوليد قم إليه فكلمه . فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فى المسجد وقال : يابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلّك تقبل منها بعضها

فقال عليه الصلاة والسلام : قل يا أبا الوليد أسمع ، فقال :

يا بن أخى ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبيب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه

فقال عليه الصلاة والسلام : لقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا (إلى أن قال) : فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ فصلت

فأمسك (عتبة) بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك

فلما رجع (عتبة) سألوه ، فقال : والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر، ولا بالسحر، يامعشر قريش ، أطيعونى فاجعلوها لى خلواً بين الرجل و بين ماهو فيه . فاعتزلوه وقالوا : لقد سحرك محمد فقال : هذا رأيى

ثم عرضوا عليه بعد ذلك صلى الله عليه وسلم أن يشاركهم فى عبادتهم و يشاركوه فى عبادته ، فأنزل الله فى ذلك :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ الكافرون

فقال لهم : لا تتوهموا أنى أجيبكم إلى طلبكم من الاشراك بالله

فلما يئسوا منه طلبوا بعد ذلك أن ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الأوثان ، والوعيد الشديد ، فيأتى بقرآن غيره أو يبدله ، فأنزل الله جوابا لهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ يونس

ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التى يرفضونها لا تقبل منهم

أرادوا أن يدخلوا من باب آخر ،وهو باب تعجيز الرسول عليه الصلاة والسلام، وقالوا : نحن نطلب من محمد (عليه الصلاة والسلام) الاتيان بأمور تكون خارقة للعادة المطردة فى هذا الكون ، فان جاءبها يكون صادقاً فى دعواه ، فاجتمعوا وقالوا : يامحمد إن كنت صادقاًفأرنا آية نطلبها منك ، وهى أن تشق لنا القمر شقين ، فأعطاه الله هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين ، ورآه رأى العين حاضرهم وغائبهم ممن رأوه فى أمكنة بعيدة ، متحدة الأفق مع مكان الحاضرين ، فأخبر بأنه رأى انشقاقه مثل ما رأى الحاضرون

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اشهدوا!

وقد ورد ذكر هذه الحادثة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ اُقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ القمر

فحينما رأى المعاندون هذه الآية الكبرى قال لهم: لقدسحركم ابن أبى كبشة

فأنزل الله فيهم :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ القمر

ثم سألوا الرسول بعد ذلك آيات لا يقصدون بها إلا التعنت والعناد والتعجيز ، فمنها أنهم قالوا له : لن نصدقك حتى تفجر لنا من أرضنا

هذه عينا تنبع لنا لا ينضب ماؤها ، أو يكون لك بستان من نخيل وعنب فتجرى الأنهار خلالها ، أو تسقط السماء علينا كما زعمت قطعا ، أو تأتى بالله والملائكة يشهدون على صحة ما تقول لنا ، أو يكون لك بيت من ذهب ، أو ترقى فى معارج السماء ؛ ولا نؤمن ونصدق أنك صعدت إليها حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، يشهد لك بصدق نبوتك ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ الإسراء

فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك ، الطالبين منك هذه الطلبات ؛ قل لهم : (هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً) أى هل أنا إلا عبد من عبيد الله من بنى آدم ، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتمونى من هذه الأمور ؟ و إنما يقدر عليها خالقى وخالقكم ، وما أنا إلا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً ﴾ الإسراء

ثم قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لو أنزلت يا محمد عليك الكتاب ، أى الوحى الذى أنزلته مع رسولى فى قرطاس يشاهدونه و يلمسونه بأيديهم، و ينظرون إليه، و يقرءونه معلقاً بين السماء والأرض بحقيقة ماتدعوهم إليه، وصحة ماتأتيهم به من توحيدى وعبادتى لقالوا : (ان هذا إلا سحر ظاهر) أى الذى جئتنا به ما هو إلا سحر سحرت به أعيننا ليست له حقيقة ولا صحة ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ الأنعام

وقال هؤلاء المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هلاَّ أنزل الله معك ملكاً من السماء يخبرنا أنك نبى ، و يصدقك على ماجئتنا به، و يشهد لك بحقيقة ما تدعى من أن الله أرسلك إلينا ؟

وذلك قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ الأنعام

فأجابهم الله على ذلك بقوله : ولو أنزلنا إليهم ملكاً فشاهدوه لقضى الله أمره فيهم باهلاكهم ، ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء المشركين ملكاً لجعلناه فى صورة إنسان من البشر ؛ لأنهم لا يقدرون أن يروا

الملك فى صورته الروحية، ولحصل لهم التباس فى أمره، فلم يدروا ملك هو أم إنس ؟ فلم يوقنوا به ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ الأنعام

استهزاء المشركين به

ثم قال الله لنبيه : هوِّن عليك يا محمد ما أنت لاق من هؤلاء المستهزئين بك ، المستخفين بحقك ، وامض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدى ، فقد استهزأت أمم من قبلك برسل أرسلتهم إليهم بمثل الذى أرسلتك به إلى قومك ، وفعلوا مثل فعل قومك بك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون من العذاب الأليم مالاقبل لهم به وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الأنعام

وقال تعالى :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الحجر

يقول الله تعـالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إنَّا يا محمد كفيناك المستهزئين، الذين يستهزئون بك، ويسخرون منك ، فاصدع بأمر الله ، ولا تَخَفْ شيئاً سوى الله ، فإن الله كافيك ومانع عنك من ناصبك العداء ، وآذاك كما كفاك المستهزئين

وكان رؤساء المستهزئين قوماً من قريش معروفين وهم : الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل ،وأبو زمعة ،والأسود بن عبد يغوث ، والحارث بن عطيلة

وقال الله تعالى :

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ يس

يقول الله تعالى ذكره : ياحسرة العباد على أنفسهم ، على ماضيعوا من أمر الله، وفرطوا فى جنب الله، مايأتيهم من رسول من الله إلا كانوا به يستهزئون ، فكان استهزاؤهم برسل الله حسرة عليهم ، وويلاً لهم

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

«وكفاه المستهزئين وكم سا ء نبياً من قومه استهزاء»

«ورماهم بدعوة من فناء الـــبيت فيها للظالمين فناء»

الهجرة الأولى إلى الحبشة

لما رأى عليه السلام شدة الأذى على أصحابه فى السنة الخامسة من

النبوة، أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر أناس منهم لم يكن لهم عشيرة تحميهم، أو قبيلة ترد كيد أعدائهم، فراراً بدينهم من أن يفتنوا فيه، وهى أول هجرة وقعت فى الإسلام بعد الرسالة وعدة

أصحابها عشرة رجال، وخمس نسوة، منهم سيدنا عثمان، وزوجه رقيّة (بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) وأبو سلمة وزوجه أم سلمة، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، والزبير بن العوام، وكلهم من قريش؛ ثم رجعوا بعد ثلاثة أشهر

أما النبى صلى الله عليه وسلم والكبار من الصحابة، فبقوا بمكة ينشرون دين الله، متحملين بقلب ثابت، وصبر جميل، ما كان يحل بهم من الأذى والضرر

وفى ذلك الوقت أسلم (حمزة) عم الرسول، (وعمر بن الخطاب) الشهم الهمام العدوى القرشى، بعد ما كان عليه من كراهية المسلمين وشدة أذاهم، وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلاً وإحدى عشرة إمرأة، وقال صلى الله عليه وسلم: اللّهم أعز الاسلام بعمر؛ وكان اسلامه فى دار الأرقم التى كان المسلمون يجتمعون فيها

الهجرة الثانية إلى الحبشة

فى السنة السابعة أمر رسول الله أصحابه بالهجرة إلى الحبشة للمرة

الثانية، وعدة أصحابها نحو ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشرة امرأة، وكان ممن هاجر فى هـذه الدفعة جعفر بن أبى طالب وزوجه أسماء وعبدالله ابن مسعود

فلما رأت قريش استقرار المهاجرين فى الحبشة أرسـلوا الى ملكها النجاشى رسولين بهدايا وتحف أن يرد من هاجر الى بلاده من المسلمين فأبى وردهما خائبين

ثم أسلم النجاشى ومن معـه من القسيسين والرهبان سنة سبع من الهجرة، لما سمعوا سورة مريم، ثم مات النجاشي مسلماً وصلى عليه رسول الله لما أعلمه جبريل بوفاته

وهذه هى أصل صلاة الجنائز على الغائب

أما الذين بقوا بمكة من الصحابة فقد نالهم من الأذى مالا يمكن احتماله إلا لمن تمكن الإسلام من قلبه، واختلط بدمه ولحمه، وهكذا كان الصحابة رضوان الله عليهم

وفد نجران

فى السنة العاشرة من رسالته وفد على الرسول بعـد الخروج من الشعب وفد من نصارى نجران، بلغهم خبره من مهاجرى الحبشة فسارعوا بالقدوم عليه، حتى يروا صفاته مع ماذكر منها فى كتبهم، وكانوا

عشرين رجلا أو قريبا من ذلك، فقرأ عليهم القرآن فآمنوا كلهم، فقال لهم أبو جهل :

ما رأينا ركبًا أحمق منكم ، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبأتم (أى خرجتم من دينكم)

فقالوا : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لكم ما أنتم عليه ، ولنا مااخترناه ، فأنزل الله فى ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾

القصص

وقد كان أهل مكة حينما عجزوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتمكنوا من مقارعة الحجة بالحجة رموه بالسحر مرة ، وبالكذب أخرى ، وبالجنون طوراً ، وبالكهانة مرة ، كل ذلك شأن العاجز المعاند الذى لا يستحيي لمزيد عناده أن يقول :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الأنفال

وفاة زوجه السيدة خديجة وعمه أبى طالب

وفى السنة العاشرة المذكورة من رسالته صلى الله عليه وسلم أصيب بمصاب عظيم ، وهو وفاة زوجه السيدة خديجة ، وعمه أبى طلب فحزن عليهما حزنا شديداً ، حتى سمى عام وفاتهما (عام الحزن) وقد اشتد إيذاء كفار قريش له ولأصحابه بعدوفاة عمه، ونالوا منهم مالم ينالوا فى حياته ؛ ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى هذه المحنة الشديدة ، لا يخاطب الكفار إلا بالحسنى، ولا يعاملهم إلا باللين ولا يغلظ فى القول لهم، بل كان حليماً ، يدعو لهم بالهداية والتوفيق ، ويقول : اللهم اُغفر لقومى فانهم لا يعلمون

وكان لا يقابل الإساءة بمثلها؛ بل يصفح عن المسىء ، ولا يحتقر أحداً من أصحابه فقيراً كان أو صغيراً ؛ بل كانوا عنده على السواء ، وكان منهم بمنزلة الوالد من أولاده، ولذا تحملوا فى سبيله كل عذاب

هجرة الطائف

لما رأى عليه السلام إستهانة قريش به، وزيادة طغيانهم وعدوانهم

خرج من مكة ومعـه غلامه (زيدبن حارثة) إلى الطائف مستنجداً بأهلها (قبائل ثقيف) لأن له بهم قرابة، فعرض عليهم الإسلام، وطلب منهم نصرته ، حتى يتم أمر ربه ، ويبلغ رسالته ، فلم يجيبوا ؛ بل أخرجوه ، وسلطوا عليه الغلمان والسفهاء يؤذونه ويَرْمُونَه بالحجارة ، حتى أدموا وجهه ، وشجوا رأسه ، مع أن زيداً بن حارثة كان يدافع عنه ويقيه بنفسه

فلما وصل إلى شجرة هناك قعد يستظل تحتها، فرآه (ابنا ربيعة) على تلك الحال ، وهما فى بستانهما فرقّا له مع أنهما كانا من ألد أعدائه ، وأرسلا له قطفا من عنب مع غلام لهما نصرانى اسمه (عدّاس)

فلما شرع يأكل منه قال عليه الصلاة والسلام: بسم الله الرحمن الرحيم

فقال الغلام :هذا الكلام ما يقوله أهل هذه الجهة

فقال النبى عليه السلام : من أى البلاد أنت وما دينك ؟

فقال : نصرانى من نينوى (بلد فى حدود العراق)

فقال عليه السلام : قرية الرجل الصالح (يونس بن متى) !

فقال الغلام : ومن أعلمك بيونس بن متى ؟

فقال النبى عليه السلام : ذاك أخى ونبىّ مثلى ، ثم قرأ الآيات التى فيها قصة يونس فى (الصافات) السابق ذكرها فى الجزء الأول

فما سمع الغلام القرآن حتى أسلم

ثم نزل جبريل عليه السلام وقال: يامحمد إن الله أمرنى أن أطيعك بما تأمر فى قومك لما صنعوه معك

فقال عليه السلام: أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله (اللَّهم إهد قومى فانهم لايعلمون)

فقال جبريل عليه السلام: صدق من سمَّاك الرءوف الرحيم

ولما كان بنخلة وفد عليه نفر من الجن يستمعون القرآن، فلما سمعوه أنصتوا له، ورجعوا إلى قومهم منذرين، وأبلغوا خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم نزلت الآية الآتية:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الأحقاف

وقد قصَّ الله قصة الجن بعبارة أطول فى سورة سميت باسمهم أولها:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ الجن

الإسراء والمعراج وفرض الصلوات الخمس

فى السنة الحادية عشرة من الرسالة

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين وخمسين سنة أسرى به ليلة السابع والعشرين من رجب، من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى (بيت المقدس) بجسمه وروحه الطاهرين كما اتفق عليه الصحابة والعلماء

وصلى فيه بالأنبياء وعرج (صعد) به إلى السموات العلى[1] ، فرأى ما رأى من آيات ربه الكبرى[1] ، وفرض الله عليه وعلى أمته خمس صلوات فى اليوم والليلة، ثم رجع من ليلته، وأصبح يخبر قومه بما رأى وشاهد، فصدقه بعض قريش ، وكذبه آخرون ، فأيده الله بالمعجزات التى طلبوها منه منها : وصفه بيت المقدس على ما كان عليه وصفاً حقيقياً مع أنه لم يره من قبل ؛ ومنها إخباره عن حالة العير (الابل التى تحمل التجارة) التى كانت لهم بالشام، وعن عدد إبلها وقال لهم : سنقدم عليكم مع غروب شمس يوم كذا يقدمها جمل أورق (لونه بين البياض والسواد) فظلوا ينتظرونها حتى جاءت كما وصف، فلم يزدادوا إلا كفراً وعناداً وقالوا : هذا سحر مبين

وبالإسراء والمعراج أكمل الله لرسوله الشرف على جميع أهل السموات والأرض، وبلغ غاية الكمالات، وارتقى أسمى الدرجات

وفى هذه القصة يقول الله تعالى فى سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ الإسراء

وقال البوصيرى رحمه الله فى قصيدته الهمزية :

١ « فَطَوَى الأرض سائراً والسَّموات العُلى فوقها له إسراء »

٢ « فصِف الليلةَ التى كان للمختار فيها على البُراق استواء »

٣ « وترقى به إلى قاب قوسين وتلك السيادة القعساء »

٤ « رتب تسقط الأمانى حسرى دونها ما وراءهن وراء »

٥ « ثم وافى يحدِّث الناس شكراً إذ أتته من ربه النعماء »

عرض نفسه على القبائل القادمين الى مكة

فى موسم الحج

لما رأى عليه الصلاة والسلام أن قريشاً تمنعه من تأدية رسالة ربه عرض نفسه على القادمين الى مكة فى موسم الحج من قبائل العرب، وأخذ يقرأ عليهم القرآن الكريم، ويطلب اليهم أن يسلموا ويمنعوا عنه أذى قومه، فلم يستجيبوا له

وقد أجابه صلى الله عليه وسلم ستة نفر من الخزرج الى الاسلام،

وهم من عرب يثرب (عرب المدينة) ووعدوه أن يبلغوا قومهم وقالوا له : انا تركنا قومنا بينهم من العداوة مابينهم،فان جمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل

وهذا هو بدء الاسلام لعرب يثرب وهم(الأوس والخزرج)

فلما رجعوا ذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوهم الى الاسلام، فانتشر الاسلام بينهم ، ولم يبق دار فى المدينة إلّا وفيها ذكره صلى الله عليه وسلم

ولما كثر المسلمون من الأوس والخزرج فى المدينة بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه رجلا يدعى(مصعب بن عمير بن هاشم القرشى) يقرئهم القرآن،ويعلمهم أمر دينهم، ويؤمهم فى صلواتهم وقد دخل أهل المدينة فى الاسلام أفواجا بعد إسلام(سعد بن معاذ) (وأسيد بن حضير)وهما سيدان من ساداتهم

قدوم كثير من أهل المدينة الى مكة للحج
ومعاهدتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما كانت السنة الثالثة عشرة من البعثة قدم الى مكة من أهل المدينة عدد كثير يريدون الحج، فاجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً خارج مكة ، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلا وأُمرأة

فأسلموا جميعًا ، وبايعوه عند العقبة ، وعاهدوه إن هو هاجر اليهم على أن يدافعوا عنه ، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم، فكانوا أنصاره صلى الله عليه وسلم على أعدائه ، وفى هؤلاء الأنصار يقول الله تعالى بعد ذكر المهاجرين :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر

الدور الثالث — من الهجرة الى الوفاة

هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة

لما بلغ عليه الصلاة والسلام ثلاثا وخمسين سنة ، وأخذ الاسلام ينمو فى بعض القبائل، واشتد إيذاء الكفار له ولأصحابه ،حتى رأى مالم يره فى سابق حياته ، أمره الله تعالى بالهجرة من مكة الى المدينة التى كان أسلم غالب أهلها ، فصدع بالأمر ، وأذن للمسلمين بالمهاجرة اليها ، فهاجر خلق كثيرون منهم سيدنا عمر وأخوه زيد ، وعمار بن ياسر، وبلال ، وسعد بن أبى وقاص ، وعثمان بن عفان حتى لم يبق بمكة مع الرسول وأهل بيته إلا القليل من المستضعفين ومعهم سيدنا على ابن أبى طالب وأبو بكر الصديق رضى الله عنهما

تآمر المشركين على قتله

فلما أحسَّ كفار قريش بأن الرسول سيهاجر أيضاً تآمروا على قتله (بدار الندوة) قبل أن يهاجر ، فأطلعه الله على سرِّهم ، ونجاه من مكرهم وكيدهم ، ورده فى نحرهم ؛ وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ الأنفال

فاتفق مع أبي بكر على أن يتجهز للخروج من مكة الى المدينة

هجرته مع أبي بكر الصديق رضى الله عنه

جهز سيدنا أبو بكر للسفر راحلتين واشترى الرسول إحداهما ، ثم أودعاهما عند رجل استأجراه دليلا لهما الى المدينة ، ووعداه (غارثور) جحر فى جبل بينه و بين مكة نحو ميلين بعد ثلاث ليال

ثم اتفق النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر على المقابلة ليلاً خارج مكة، وكانت تلك الليلة موعد تنفيذ قريش ماتآمروا عليه من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فاجتمعوا حول البيت الذى بات فيه الرسول وصاروا يرددون النظر من شقوق الباب ، حتى اذا نام دخلوا عليه ليقتلوه

فلما أراد الخروج أمر سيدنا علياً بأن ينام مكانه ، فنام وغطاه ببردته ليخفى الأمر على القوم ، ثم تحصن بالله وخرج عليهم ناثرا التراب على رؤسهم وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يس

فألقى الله عليهم النوم ، ولم يشعر به أحد ، فقابله أبو بكر فى الموعد وسارا حتى وصلا الغار ليلاً وكمنا فيه

فلما همّ القوم بالقتل ، دخلوا البيت فوجدوا النائم على بن أبى طالب، لا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، فاغتاظوا غيظاً شديداً ، واقتفوا الإثر الذى انقطع عند الغار ، فتحيروا فى أمرهم ولم يهتدوا ، حيث أعمى الله بصرهم عن النظر فى الغار بنسج العنكبوت وتعشيش الحمامتين على فمه،فرجعوا خائبين ، وجعلوا مكافأة كبيرة لمن يدل عليهما

خرج النبى صلى الله عليهوسلم حين أمر بالهجرة إلى المدينة المنورة ومعه أبو بكر فأقاما ثلاثة أيام فى الغار

وروى أنه لما انطلق أبو بكر رضى الله عنه إلى الغار جعل يمشى ساعة بين يدى الرسول وساعة خلفه،فقال له رسول الله صلى الله عليهوسلم : مالك يا أبا بكر ؟ فقال أذكر الطلب فأمشى خلفك،ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك

فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء الغارفدخل فاستبرأه ثم قال : انزل يارسول الله، فنزل

وروى عن أبى بكر الصديق أنه حدثهم فقال : نظرت إلى أقدام المشركين فوق رءوسنا ونحن فى الغار ، فقلت: يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا

فقال : يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟

وحادثة الغار مشهورة ومشار إليها فى القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

التوبة

ويروى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : أنت صاحبى فى الغار ، وأنت صاحبى على الحوض

قال الحسين بن المفضل : مَن قال ان أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار فقد كفر بنص القرآن ، وسائر الصحابة إذا أنكرهم يكون مبتدعًا، والمعوّل عليه تكفير من أنكر صحبة المجمع على صحبته منهم

فلما جاء الدليل بالراحلتين فى الميعاد ركبا وسارا فلحق بهما (سراقة ابن مالك) الذى طمع فى أخذ المكافأة من قريش،وأرادأن يتعرض لهما،فغاصت يدا فرسه فى الأرض الصماء،فاستجار بالنبى ، فأجاره على أن يرجع فرجع ؛ ولكن حدثته نفسه بالمكافأة فكرَّ عليهما ثانيًا،فغاصت قوائم الفرس الأربع إلى الركبتين ، فطلب منهما الأمان،وتعهد بأن يرد

عنهما جيش العدوان، فعفا عنه الرسول، وأشار إلى الفرس فنهضت فركبها ورجع كما جاء

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« وَنَحَا المصطفى المدينة واشتا قت إليه من مكة الأنحاء »
« وتغنَّت بمدحه الجنُّ حتى أطرب الإنسَ منه ذاك الغناء »
« واقتفى إثره سُراقة فاستهـوَته فى الأرض صافنٌ جَرداء »
« ثم ناداه بعد ما سِيمَتِ الخَســفَ وقد يُنجد الغَريق النداء »

من هذه الحادثة تعلم مقدار حماية الله لرسوله، وخيبة أعدائه، ومحبة سيدنا على له حيث عرض نفسه لفدائه ؛ وتعلم أيضاً مقدار حلم الرسول على قومه ، وصبره على الأذى ، وحسن معاملته لطالب العذر منه ، حيث عفا عنه مع قدرته إذ ذاك على الانتقام منه ؛ وتعلم أيضا مقدار صدق أبى بكر، وحسن صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم

الوصول الى المدينة المنورة

ثم سار النبى عليه السلام وصاحبه أبو بكر فى أمان حتى قربا من المدينة بعد ستة أيام، وكان أهلها ينتظرونه لعلمهم بقدومه، فإذا بيهودى ينادى بأعلى صوته : يامعشر العرب ، هذا حظكم الذى تنتظرونه ، فتقلدوا أسلحتهم وتلقوا الرسول مهللين مكبرين، فعدل بهم ذات اليمين ونزل

(بقباء) موضع بجوار المدينة على بنى عمرو بن عوف فى اليوم الثامن من ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م كما حققه المرحوم محمود باشا الفلكى وأسس مسجد قباء الذى وصفه الله بقوله :

﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ ﴾ التوبة

وقد صلى فيه الرسول بمن معه من المهاجرين والأنصار الجمعة، وكانوا مائة رجل ، وهذه أول جمعة صلاها

وكانت المساجد فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غاية من البساطة

ثم توجه بعد الجمعة إلى المدينة والأنصار شاهرو السلاح، محيطون به إحاطة الهالة بالقمر ، فما فرح أهل المدينة بشىء فرحهم برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد خرج لملاقاته فيمن خرج النساء والصبيان والولائد ينشدن :

« طلع البدر علينا من ثنيات الوداع »
« وجب الشكر علينا ما دعا لله داع »
« أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع »

وكان كل واحد يود نزول الرسول بفنائه ، ويأخذ بزمام ناقته ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : (خلوا عنها فإنها مأمورة)

فلما وصلت إلى فناء بنى النجار (أخوال أبيه) بركت أمام دار أبى أيوب الأنصارى، فأخذ أهل المدينة فى الترحيب بالرسول عليه الصلاة والسلام ، والمبالغة فى إكرامه وإكرام المهاجرين ، ووازروه ونصروه (فسمُّوا بالأنصار)ومن وفدوا عليهم (سمُّوا بالمهاجرين)

المؤاخاة بين الأَنصار والمهاجرين

ولما استقر بالرسول المقام بالمدينة،وبنى مسجده وداره قريبا من دار أبى أيوب الأنصارى، أخذ يؤاخى بين المهاجرين والأنصار، حتى صار كل واحد يفضل أخاه على نفسه ، فقويت بذلك عصبتهم ، وهابهم القريب والبعيد ، فعاش المهاجرون فى هناء وصفاء ، وأحبوا المدينة أكثر من محبتهم لوطنهم ، ببركة دعائه عليه الصلاة والسلام

وقد أعزَّ الله تعالى الاسلام، وأعلى مناره ، وقوى رسوله بالأنصار والمهاجرين،وبمن دخل فى دين الله تعالى من قبائل العرب ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِىَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ التوبة

مبدأ التاريخ الاسلامى

لما كان لهجرته عليه السلام وتركه بلده وعشيرته شأن عظيم ، وبها

ظهر الإسلام ظهور الشمس فى رائعة النهار ، بعد أن كان فى خفاء واستتار، اختار سيدنا عمر بن الخطاب فى أيام خلافته أن يكون عام الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامى . وفى السنة المذكورة بنى عليه السلام مسجده بالمدينة وفيها شرع الله الأذان لجمع المسلمين للصلاة

يهود المدينة

قد ابتلى الله المسلمين فى المدينة بيهودها، كما ابتلاهم فى مكة بمشركى قريش و بالمنافقين ، وهم قوم أظهروا الإسْلام وأضمروا الكفر، فان اليهود قد أظهروا العداوة والبغضاء حسداً من عند أنفسهم ، واستكباراً من أن تكون النبوة فى ولد إسماعيل، فكفروا بما أنزل الله بغياً ، مع أنهم علموا بأن رسول الله محمداً لم يأت إلاّ مصدقا لما بين يديه من كتب الله التى أنزلها على من سبقه من المرسلين

ولذا أمر الله تعالى محمداً أن يدعو يهود بنى إسرائيل ، الذين كانوا فى المدينة إلى توحيد الله فقال له والمؤمنين به: قل يا محمد لأهل الكتاب ، وهم أهل التوراة والانجيل، هلمّوا إلى كلمة سواء، أى عدل بيننا و بينكم ، وهى أن نعبد الله ، ولا نعبد سواه ، ونبرأ من كل معبود غيره . فلا نشرك به شيئًا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً ، أى لا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصى الله، و يعظمه بالسجود له كما يسجد لربه ، فإن

أعرضوا عما دعوتهم إليه، من هذه الكلمة العدل التى أمرتك بدعائهم إليها، ولم يجيبوك إليها ، فقولوا أنتم أيها المؤمنون للمعرضين عن ذلك : اشهدوا بأنا مسلمون ، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران

فأصروا على عنادهم ، وأرادوا تعجيزه ، فسألوه أن يأتى بمعجزة ، تدل على صدق نبوته ودعوته، فطلبوا منه أن ينزل عليهم كتابا من السماء وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ النساء

فأجابهم الله توبيخاً لهم وتقريعاً بقوله : يا محمد لا يعظمن عليك مسألتهم ذلك، فقد سألوا موسى أعظم مما سألوك، حيث قالوا له : أرنا الله جهرة ننظر إليه، فصعقوا بظلمهم أنفسهم ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ النساء

ثم يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إن كفر

بالذى أوحينا إليك يامحمد اليهود الذين سألوك أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ، وقالوا لك : ما أنزل الله على بشر من شىء ، فقد كذبوا ؛ ولكن الله يشهد بتنزيل ما أنزله من كتابه ووحيه إليك ، يعلم منه بأنك خيرته من خلقه ، وصفيه من عباده ، ويشهد بذلك ملائكته ، فلا يحزنك تكذيب من كذبك ، وحسبك بالله شاهداً على صدقك ، دون ماسواه من خلقه ؛ وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ لَـكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾ النساء

ثم يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ البقرة

يقول الله تعالى ذكره : إنا أرسلناك يا محمد مؤيداً بالحق ، مبشراً للمؤمنين ، ومنذراً للكافرين ، ولست بمسؤول عن الذين يستحقون النار المتأججة ؛ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تميل إلى

دينهم وتتبع ملتهم ، فقل لهم : إن هدٰى الله، أى الاسلام ، هو الهدٰى الصحيح ليس ما أنتم عليه من عناد و إنكار بغياً وحسداً ، ثم حذره الله وقال له : لئن اتبعت يا محمد أضاليلهم بعد الذى نزل عليك من الوحى مالك من الله من محب ولا ناصر يدفع عنك عقابه

وقد حجَّهم القرآن الشريف بما يدل على أنهم يعلمون من نفوسهم البعد عن الحق فقال الله تعالى :

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة

ثم ختم جل ذكره عدم إجابتهم بقوله :

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

البقرة

فلو كانوا يعلمون من أنفسهم أنهم على الحق لما تأخروا عما طلب منهم، مع سهولته وحرصهم على تكذيب الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم

وقد تبين الهدٰى لأحد رؤساء وعلماء اليهود (عبد الله بن سلام) فترك هواه وأسلم بعد أن سمع القرآن كما أسلم أيضا (كعب الأحبار) وغيرهما من أحبار اليهود وساداتهم

المنافقون المستهزءون

وكان يساعد اليهود على مقاصدهم وكفرهم جماعة من عرب المدينة أعمى الله بصائرهم، فأخفوا كفرهم حرصاً على حياتهم، وهؤلاء هم المنافقون وكان يرأسهم (عبدالله بن أبيّ ابن سلول الخزرجى) الذى كان مرشحاً نفسه لرئاسة أهل المدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

ويقول الله فيهم : هؤلاء المنافقون إذا قابلوا المؤمنين قالوا لهم : إنا آمنا كما آمنتم، فاذا خلوا إلى إخوانهم فى الكفر واجتمعوا بهم قالوا لهم: هوّنوا على أنفسكم، إننا لانزال على ملتكم، إنما نحن فى تظاهرنا بالإيمان نستهزىء بالمؤمنين

ولكن الله يستهزىء ويسخر بهم للنقمة منهم، ويزيدهم طغياناً ليزدادوا حيرةً وضلالاً

وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ البقرة

وهؤلاء المنافقون هم الذين باعوا الهدى، واشتروا به الضلالة، فما كسبت تجارتهم، وما اهتدوا، وفى ذلك قوله تعالى :

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ البقرة

ولا شك أن ضرر المنافقين أشد من ضرر الكفار؛ لأن أولئك يدخلون بين المسلمين يتعلمون أسرارهم، ويشيعونها بين الأعداء من اليهود وغيرهم؛ ولذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يركن لهم ولا يأمنهم فى عمل ما، وكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولى عليها بعض الأنصار، ولم يعهد أنه ولى رجلا من المنافقين، وقد حذره الله منهم بقوله : إذا جاءك المنافقون يامحمد قالوا لك بألسنتهم : نشهد انك لرسول الله، والله يعلم انك لرسوله، وكفى به شهيداً، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون فى أخبارهم، وقد اتخذوا أقسامهم وحلفهم وقاية وستراً، فيمنعون بها أنفسهم وذراريهم وأموالهم، ويدفعون بها عنها، فأعرضوا عن دين الله الذى بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم، وانهم لقد ساء ما كانوا يعملون، ذلك بأنهم آمنوا ظاهراً، ثم كفروا سراً فأغلقت قلوبهم، فهم لا يفقهون صواباً من خطإ وحقاً من باطل

فاذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإذا خاطبوك تعجبك أقوالهم ولكنهم يقولون بألسنتهم ما ليس بقلوبهم،فهم أعداء كاذبون:قاتلهم الله

وفى ذلك قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ المنافقون

معاهدة اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لما رأت اليهود أن قدم الاسلام قد رسخت فى المدينة ، هاجتهم العداوة والبغضاء ، فتحزبوا على المسلمين ، فعقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أولئك اليهود عقداً مقتضاه ترك الحرب والأذى ، فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ، ولا يعينون عليه أحداً ، و إن دهمه عدو ينصرونه وأقرهم على دينهم

الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الدين

ومشروعية القتال

مكث الرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث عشرة سنة من بعثته إلى هجرته يدعو الناس إلى الاسلام باللين والعرف، مبشراً ونذيراً، وصابراً على الأذى، متوكلاً على الله، كما قال الله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّراً وَنَذِيرًا وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ الأحزاب

ولما اشتد طغيان أهل مكة تآمروا على قتله، وأخرجوه من داره وبدأوا بالعداء والغدر ، وأصرّوا على العناد ، فأمره الله بالقتال لمنع الاعتداء ، وحماية للدعوة ممن يصد الناس عن الدخول فى الاسلام ، أو يفتنهم ، أو يعذبهم اذا دخلوا فيه ، لقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ الحج

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا ﴾ البقرة

وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلهِ﴾ الأنفال

وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ التوبة

فقام يغزو ويجاهد فى سبيل الله ، لاعلاء كلمة الدين ، وهداية الناس إلى الطريق القويم ، لا طمعاً فى ملك ، ولا حباً فى رياسة أو مال ، ولا عَرض من أعراض الدنيا ، وصار الجهاد عاما

ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله »

غزواته صلى الله عليه وسلم

وغزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، لم يبدأ فيها أحداً بالعداء؛ بل كان لا يقاتلهم إلاَّ بعد الانذار والتبشير فتبدو منهم الغلظة والجفاء وحمية الجاهلية، ولذا أيده الله بالنصر، ونال منهم مالم ينل أحد، مع قلة العدَد والعُدد، وكثرة الأعداء وقوتهم ، وهزمهم فى عدة مواقع

وأهم الغزوات (تلك الغزوة التى فتح فيها مكة) وكان ذلك فى السنة الثامنة من الهجرة، ودخلها فائزاً، فخاف أهلها أن ينتقم منهم بسبب إيذائهم وحروبهم له ولأصحابه ؛ ولكنه عفا عنهم فآمن به خلق

كثير، ودخلوا فى دين الله أفواجا، وصاروا له أولياء ناصرين بعد أن كانوا أعداء مبغضين، و بذلك قضى على الوثنية فى جزيرة العرب

وما زال صلى الله عليه وسلم ينشر دين الاسلام هو وأصحابه حتى عمَّ بلاد العرب، وخضعت له القبائل كلها، وأرسلت إليه وفوداً تقدم الطاعة والخضوع لأوامر الله ، بعد أن ملأ الاسلام قلوبهم ، وتمكن من نفوسهم وكان ذلك فى السنة العاشرة من الهجرة

فكان عليه الصلاة والسلام يقابلهم بالبشاشة، ويعلمهم أحكام الدين ويبث فيهم مكارم الأخلاق تأييداً لقوله :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

دعوته الملوك إلى الاسلام

لم يقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على جهاده ، و انتشار دينه ؛ بل أرسل إلى جميع الملوك المجاورين لبلاد العرب، يدعوهم إلى الدخول فى الاسلام

فمنهم من آمن وحسن حاله ؛ ومنهم من ردَّ رداً حسناً ؛ ومنهم من رفض ، فحاربه النبى صلى الله عليه وسلم وانتصر عليه

وهاك صورة الكتاب الذى أرسله إلى المقوقس :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فانى أدعوك بدعاية الاسلام إسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين، و إن توليت فانما عليك إثم القبط ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية

٢ ـ وكتب مثله الى قيصر عظيم الروم

٣ – أما الكتاب الذى وجهه إلى كسرى ملك الفرس فهذا صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم (من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس) سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فانى أنا رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فان أبيت فانما عليك إثم المجوس

فلما وصله الكتاب مزقه استكباراً ؛ ولما بلغه عليه السلام ذلك قال: (مزّق الله ملكه كل تمزيق) وقد فعل، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً وانحطاطاً

٤ – أما الكتاب الذى وجهه الى النجاشى ملك الحبشه فهذا صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم (من محمد رسول الله الى النجاشى عظيم الحبشة) أما بعد ، فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته

ألقاها الى مريم البتول ، الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده

وإنى أدعوك الى الله وحده لاشريك له،والموالاة على طاعته،وأن تتبعنى وتوثق بالذى جاءنى، فانى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى

فلما وصله الكتاب احترمه غاية الاحترام، وقال لحامله : (عمرو بن أمية) انى أعلم والله أن عيسى بشَّر به ، ولكن أعوانى بالحبشه قليل عددهم ، فأنظرنى حتى أكثر الأعوان، وألين القلوب

حجة الوداع

فى السنة العاشرة من الهجرة حيث انتشر الاسلام،واتسعت دائرته وعلت كلمته ، وأمنت بالجهات ، خرج الرسول فى يوم السبت لخمس بقين من ذى الحجة فى جموع كثيرة لأداء فريضة الحج ، فدخل مكة وأدى نسكه ، ثم خطب يوم النحر (يوم العيد) بمنى خطبته التى بين فيها الدين ، وأوضح معالمه ، وأكثر فيها من قوله : ألاَ هل بلغت ؟ ليبلغ الشاهد منكم الغائب اللَّهم اشهد ، ثم ودع فيها الناس ، فلذلك سميت تلك الحجة (بحجة الوداع) ثم عاد عليه السلام الى المدينة

نزول ختام القرآن الكريم

وقد نزل ختام القرآن يوم عرفة، فى تلك الحجة، وهو قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ المائدة

وبذلك أكمل الرسول شعائر الإسلام، وأتم رسالته على أكمل وجه، ثم عاد الى المدينة

فلا غرابة أن اتخذه المسلمون عيداً، ويوماً سعيداً، يظهرون فيه شكراً لله على هذه النعمة الكبرى

مرض الرسول عليه الصلاة والسلام

فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة

بعد أن عاد الرسول من الحج الى المدينة مرض ثلاثة أيام، ولما اشتد عليه المرض استأذن نساءه أن يُمرَّض فى بيت إحداهن، فأذنّ له ببيت عائشة الصديقية رضى الله عنها

ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة قال : مُروا أبا بكر فليصل بالناس؛ ثم خرج عليه السلام متوكئًا على علىّ والفضل، وتقدم العباس أمامهم، والنبى عليه الصلاة والسلام معصوب يخط برجليه حتى جلس

فى أسفل مرقاة المنبر ، فثار الناس اليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال :

أيها الناس ، بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خُلد نبى قبلى فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا وانى لاحق بربى ، ألا وأنكم لاحقون بى فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر

وان الأمور تجرى بإذن الله ، الى أن قال : وأوصيكم بالأنصار خيراً ، فانهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم إلى آخر خطبته

وفاته صلى الله عليه وسلم

فى السنة الحادية عشرة من الهجرة أراد النبى غزو الروم، فجهز جيشاً كبيراً ،وأمَّر عليه أسامة بن زيد ، وفى أثناء الاستعداد طرأ المرض الذى توفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم تتم تلك الغزوة فى حياته ،وأتمها بعدوفاته أبو بكر الصديق خليفته ، فانه عليه الصلاة والسلام بقى مريضا حتى فارق الدنيا ، فاختاره مولاه ، ولحق بالرفيق الأعلى ، وذلك فى يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول من تلك السنة (٨ يونية سنة ٦٣٢ م) المتممة له ثلاثا وستين سنة ، ودفن حيث قبض فى

حجرة عائشة بالمدينة المنورة ، ومدفنه هناك يسمى (بالحرم المدنى) والحجرة التى بها قبره تسمى (بالروضة النبوية الشريفة) ولا يزال قبره الشريف موضع احترام المسلمين وتعظيمهم، يزوره الحجاج فى كل عام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام !

و بوفاته حزنت النفوس حزنا شديداً على فراقه ، فاللّهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة، وأُبعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لاتخلف الميعاد

وقد نعاه الى أصحابه أبو بكر رضى الله عنه وقال لهم وهم مجتمعون ، وقد استولت عليهم الدهشة وتملكهم الحزن والأسى :

أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حىّ لايموت ، ثم تلا عليهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ الزمر

ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ آل عمران

لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه ، بعد أن بلغ الرسالة وأدى

الأمانة كما أمر وعمره عليه السلام ٦٣ سنة قمرية وثلاثة أيام ، وترك للمسلمين ما إن اتبعوه لم يضرهم شيء كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وترك أصحابه الكرام البررة يوضحون الدين ، ويتممون فتح البلاد ، ويظهرون فى الدنيا شمس الدين الاسلامى القويم

زوجاته عليه الصلاة والسلام

المشهورات من نسائه إحدى عشرة امرأة (متفق عليهن) وهن :

١ ـ خديجة ـ ٢ عائشة ـ ٣ سودة ـ ٤ زينب بنت جحش ـ ٥ هند وهى أم سلمة ـ ٦ حفصة ـ ٧ رملة وهى أم حبيبة ـ ٨ جويرية ـ ٩ صفية ـ ١٠ ميمونة ـ ١١ زينب بنت خزيمة أم المساكين

وتوفى رسول الله عليه الصلاة والسلام عن تسع زوجات وقد نظمهن بعضهم فقال :

«توفى رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسب»
«فعائشة ، ميمونة ، وصفية وحفصة ، تتلوهن هند ، وزينب»
«جويرية ، مع رملة ، ثم سودة ثلاث وست كلهن مهذب»

وماتت فى حياته خديجة وزينب بنت خزيمة رضى الله عنهما :

وكلهن أمهات المؤمنين ، فاضلات طيبات ، طاهرات صالحات ،

وأفضلهن عائشة بنت أبي بكر الصديق،التي لم يتزوج بكراً غيرها ،وتوفى عنها وعمرها ١٨ سنة وعاشت بعده ٤٠ سنة

سراريه عليه الصلاة والسلام

أما سراريه فثلاث : مارية القبطية ـ ريحانة ـ جميلة

أولاده عليه الصلاة والسلام

أولاده سبعة : ثلاث ذكور ، وأربع إناث ، منظومة فى قول بعضهم :

« قاسمُ ابراهيمُ عبـد الله   هم الذكور للنبى الأوّاه »

« ثم الاناث زينب فاطمةُ   فأمُّ كلثوم كذا رُقيّة »

وكلهم من خديجـة ، إلا ابراهيمَ فانه من مارية القبطية ، وتُوفى فى السنة العاشرة من الهجرة

وأما القاسم، وعبد الله ، فانهما ماتا قبل البعثة

وأما الاناث فكلهُن أدركن الاسلام وأسلمن، ولم يعش منهن بعد وفاته عليه الصلاة والسلام إلاَّ فاطمة الزهراء فانها ماتت بعـده بستة أشهر وقيل بشهرين ونصف

معجزاته عليه الصلاة والسلام

المعجزة هى الأمر الخارق للعادة الذى يظهر على يد نبى أو رسول برهاناً على صدق دعواه ، وان محمداً صلى الله عليه وسلم من يوم ولادته الى مبعثه كانت أحواله وأقواله وأفعاله كلها كرامات تجل عن الحصر ؛ ومن مبعثه الى وفاته كلها معجزات باهرات، وآيات بينات، دالة على أنه رسول الله حقاً وصدقاً

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم تنقسم الى قسمين : معجزة علمية عقلية ، ومعجزات كونية

المعجزة العلمية الكبرى الخالدة التى فاقت كل المعجزات

تلك المعجزة هى (القرآن الكريم) وهو كتاب الله الحكيم وآيته الكبرى ، وهدايته العظمى ، ونوره المبين ، وصراطه المستقيم ، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج به الناس من الظلمات الى النور ؛ ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد ، فانه والحق يقال ـ رغم أنف المعاندين والمكابرين (معجزة كبرى فاقت كل المعجزات) لبلاغته التى أعجزت الفصحاء ، وأفحمت الخصماء ، مع أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام كان أمياً لم يقرأ سِفراً ، ولم يكتب سطراً ، ولم يختلف الى معلم ، ولم يعكف على درس

وهذا القرآن الكريم، هو كلام الله المكتوب فى المصاحف، المحفوظ فى صدور الملايين من المسلمين ، من يوم نزوله على النبى العظيم الى يومنا هذا ، وهو مشتمل على أخبار الأنبياء الماضين مع أممهم، وعلى القوانين العادلة الموافقة لمصالح العالم، وعلى الحكم والأمثال، والأخلاق والآداب التى تخشع لها القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحض على الاتحاد والائتلاف وحسن المعاملة ، وصلة الأرحام ؛ وعلى الإخبار بمغيبات حصلت ، كل ذلك بألفاظ عذبة سهلة، وعبارات هى غاية فى الفصاحة والبلاغة، وأساليب عجز عن مجادلتها البلغاء، وكبار الكتاب

هذا وقد ابتدأ نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليلة السابع عشر من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، وتم نزوله فى اليوم التاسع من ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والسنة الثالثة والستين من ميلاده عليه الصلاة والسلام، فالمدة بين مبدإ نزوله وختامه اثنان وعشرون سنة وشهران واثنان وعشرون يوما كما جاء فى كتاب هداية القرآن لحضرة الأستاذ الشيخ حسين سامى من علماء الأزهر الشريف

والليلة التى أنزل فيها القرآن هى ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ القدر

ولا نزاع فى أن هذه الليلة كانت فى شهر رمضان لقوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ البقرة

وأما يوم الختام فهو يوم الجمعة، يوم عرفة، من العام الذى حج فيه النبى صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، وكانت آية الختام قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ المائدة

ولم ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شىء من الفرائض، ولا تحليل شىء ولا تحريمه، ولم يعش عليه الصلاة والسلام بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة

وإليكم بعض الآيات التى جاءت فى نزول القرآن على محمد صلى الله

عليه وسلم ، ليكون فى ذكرها دليل قاطع على أن القرآن من كلام الله وليس من كلام البشر، قال الله تعالى فى كتابه العزيز :

١ — ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً ﴾ الكهف

يقول الله تعالى ذكره : الحمد لله الذى خصّ برسالته محمداً وانتخبه لإبلاغها عنه ، فبعثه إلى خلقه نبياً مرسلاً، وأنزل عليه كتابه ، كتاباً قيماً

معتدلًا مستقيمًا لا اعوجاج ولا اختلاف فيه

٢ - ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ الشعراء

يقول الله تعالى ذكره : و إن هذا القرآن لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين (جبريل) عليك يامحمد،حتى وعيته بقلبك لتكون من رسل الله الذين ينذرون من أرسلوا إليه من قومهم، فتنذر بهذا القرآن قومك المكذبين بآيات الله ، وقد أنزله الله بلسان عربي مبين ليبين لمن سمعه أنه عربي ، وأنه بلسان العرب أنزل

٣ - ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾

آل عمران

يقول الله تعالى ذكره : يا محمد إن ربك ورب عيسى ورب كل شيء هو الرب الذي أنزل عليك الكتاب (القرآن) بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والانجيل، وفيما خالفك فيه محاجوك من نصارى أهل نجران وسائر أهل الشرك غيرهم، مصدقاً هذا القرآن لما كان قبله من كتب الله الذي أنزلها على أنبيائه ورسله ، ومحققاً ما جاءت به رسل الله من عنده، لأن منزل جميع ذلك واحد، فلا يكون فيه اختلاف ولو كان من عند غير الله لكان فيه اختلاف كثير

وأنزل التوراة على موسى،والانجيل على عيسى، من قبل الكتاب الذى نزله عليك ، بياناً للناس من الله فيما اختلفوا فيه من توحيد الله وتصديق رسله ، ومفيداً يا محمد أنك نبيي ورسولى

وأنزل الفرقان (أى الفارق والفاصل بين الحق والباطل) فيما اختلفت فيه الأحزاب وأهل الملل فى أمر عيسى وغيره

والخلاصة أنه نزل الفرقان وهو القرآن على محمد، وفرق به بين الحق والباطل ، فأحلَّ فيه حلاله، وحرَّم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحدَّ فيه حدوده ، وفرض فيه فرائضه ، و بين فيه بيانه ، وأمر بطاعته ونهى عن معصيته

٤ – ﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يامحمد هذا القرآن كتاب أنزله الله إليك فلا يَضِقْ صدرك من الإنذار به من أرسلتك لانذاره به ، و إبلاغه من أمرتك بابلاغه إياه ، ولا تشك فى أنه من عندى واصبر بالمضى لأمرالله تعالى، واتباع طاعته فيما كلفك وحملك من عبء أثقال النبوة ، كما صبر أولوالعزم من الرسل،فان الله معك.

وهذا الكتاب ذكرى للمؤمنين أى لتذكر به المؤمنين

وقد قام المعاندون وعارضوا فيه، فطلب منهم أن يأتوا بسورة من مثله،فعجزوا ورجعوا بالخيبة والفشل كما مرَّ ذكره

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله متعجباً من الكفار الذين شاهدوا هذه المعجزة، ولم يعترفوا بها،ولم يزدادوا إلا ضلالاً :

« عجباً للكفار زادوا ضلالاً بالذى فيه للعقول اهتداء »

« والذى يسألون منهُ كتاب مُنزل قد أتاهُمُ وارتقاء »

« أو لم يكفهم من الله ذكر فيه للناس رحمة وشفاء »

ثم وصف القرآن بقوله :

« أعجز الإنسَ آية منه والجــنَّ فهلاَّ تأتى بها البُلغاء ؟ »

« كلَّ يوم تهدى إلى سامعيه معجزاتٍ من لفظه القرَّاء »

« تتحلى به المسامع والأَفْــواه فهوَ الحُلىُّ والحلواء »

الشرح : أى عجباً لبقاء الكفار على كفرهم،مع مشاهدة معجزاته صلى الله عليه وسلم ؛ بل من ازدياد كفرهم مع مشاهدتهم من الآيات والمعجزات ما يرشد العقول إلى الحق، لولا المعاندة والمكابرة . وأخذ يوبخهم بما حكاه عنهم،حتى انهم سألوه أن يرقى فى السماء، و يأتيهم بكتاب منزل عليه ، ولم يكفهم ما أنزل عليه من الكتاب العزيز الذى هو رحمة للمذنبين وشفاء للمؤمنين (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ) فصلت ووصف لهم هذا الكتاب بأنه أعجز الانس والجن على أن يأتوا بسورة

من مثله، وأنه فى كل وقت تهدى القراء إلى سامعيه معجزات من لفظه لعذوبته وانسجامه وجزالته وغاية ايجازه مع غاية فصاحته وبلاغته، وأنه جدير بأن تزدان به المسامع ، ويحلو مذاقه فى الأفواه

ثم أخذ يشرح لهم مافى هذا الكتاب العزيز من العلوم والمعارف قائلا :

«كم أبانت آياته من علوم   عن حروف أبان عنها الهجاء»
«فهى كالحب والنوى أعجب الزرّ   اع منه سنابل وزكاء»
«فأطالوا فيه التردد والريـ   ـب فقالوا: سحر وقالوا: افتراء»
«وإذا البينات لم تغن شيئاً   فالتماس الهدى بهن عناء»
«وإذا ضلت العقول على علـ   ـم فماذا تقوله النصحاء»

الشرح : أى أن آيات القرآن الكريم أوضحت من العلوم والمعارف مالا يُحَدّ بحروف قليلة بالنسبة لها وهى حروف الهجاء، ولاغرابة فان المتناهى قد يحصل منه مالا يتناهى، ألاَ ترى أن الحب الذى يلقيه الزراع فى الأرض قد ينشأ عنه من السنابل والحبوب مالا يكاد يحصى والنوى الذى يلقيه الغراس فى الأرض قد ينشأ عنه من التمر كذلك

ومع ذلك فان الكفار أطالوا فيه (أى فى القرآن) الترددوالريب فقالوا : سحر كما حكاه الله عنهم ؛ وقالوا : افتراء ، وقالوا : أساطير الأولين ، فكذبهم الله بقوله :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ البروج

وقوله ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فصلت

وإذا كانت هذه الحجج القطعية البرهان، الواضحة البيان، لم تهدهم إلى سواء السبيل، فالتماس الهدى بهن تعب وعناء، وإذا ضلت العقول عن طريق الحق مع العلم بها فأى قول تقوله النصحاء؟ قال تعالى :

﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية

هذه المعجزة العلمية الكبرى فاقت معجزات الرسل قبله . وذلك أن المعجزات التى أيد الله بها الرسل السابقين كانت كلها حوادث كونية تنتهى بوقوعها أو بموت الرسول المؤيد بها

كانفلاق البحر لموسى ، وقلب العصاة حية تسعى ، وابراء عيسى بعض الأمراض التى استعصى على الطب علاجها

أما معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (وهى القرآن الكريم) فتلك هى المعجزة العلمية الباقية بدوام الدهر، المنقولة بالتواتر، المحفوظة من

التحريف والتبديل، لقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر

ولا يزال كتاب الله ناطقاً بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، ودليلاً ناهضاً على بقاء شريعته، وأنها آخر الشرائع، وأنها ناسخة لكل شريعة قبلها

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله فى قصيدة البردة :

« آياتُ حقٍ مِن الرحمن مُحدثة قديمة صفة الموصوف بالقِدم »
« لم تقترن بزمان وهى تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن ارم »
« دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدُم »

المعجزات الكونية

المعجزات الكونية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة جداً، نذكر بعضها وهى :

١ – انشقاق القمر حين طلبت قريش منه ذلك فنزل قوله تعالى :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ القمر

كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

اشهدوا . وقال بعضهم : وفى انشقاق القمر له مناسبة لشق قلبه حين شقه الملكان ، وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله:

«أقسمت بالقمر المنشق إن له   من قلبه نسبة مبرورة القسم»

ومعنى البيت : أقسمت برب القمر يميناً مبرورة ، إن للقمر المنشق شبهاً بقلبه صلى الله عليه وسلم فى انشقاق كل منهما مرتين ؛ ووجه الشبه بين الانشقاقين جريهما على خلاف العادة فى الانشقاق والالتئام من غير تأثير ولا اختلاف

٢ – احتباس الشمس ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أخبر قريشاً بقدوم عيرهم من الشام فى يوم من الأيام فولى النهار ولم تجىء فدعا فزيد له فى ساعة وحبست عليه الشمس

ومن ذلك ماروت أسماء بنت عميس أنه صلى الله عليه وسلم أوحى إليه ورأسه فى حجر علىّ وفوّت على صلاة العصر لمراعاته ؛ فلما أفاق صلى الله عليه وسلم قال :

«اللّهم إنه كان فى طاعتك، وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس»

قالت أسماء : فرأيتها غربت، ثم رأيتها طلعت بعد ماغربت ، ووقفت على الجبال والأرض وذلك بالصهباء فى خيبر

٣ – نسيج العنكبوت وتعشيش الحمامتين على فم الغار لما دخله هو

وأبو بكر استتاراً عن أعين المشركين يوم الهجرة النبوية كما تقدم ذكرها وفى ذلك يقول البوصيرى :

« وماحَوى الغار من خير ومن كَرَم وكُلُّ طرف من الكُفار عنهْ عَمى »

« فالصدق فى الغار والصديق لم يَرِمَا وهم يقولون ما بالغار من أَرِم »

والمعنى : أنه لما دخل صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر فى الغار هرباً من الكفار ، فطلبوهما حتى وقفوا على فم الغار ، فأعماهم الله تعالى عنهما ببركة النبى صلى الله عليه وسلم

وأنهما لم يبرحا الغار والكفار لا ينظرونهما ويقولون ليس أحد فى الغار

« ظنوا الحمام وظَنُّوا العنكبوت على خير البرية لم تَنسُج ولم تَحُمِ »

ولما رأى الكفار أن الحمام حامت حول الغار، والعنكبوت نسجت خيوطها عليه فى ساعة واحدة، ظنوا أن خير البرية وصاحبه ليسا فى الغار لظنهم استبعاد حوم الحمام حول الغار ،ونسيج العنكبوت عليه فى وقت لا يتسع لذلك

«وقايةُ الله أغنَت عن مضاعفة من الدُّروع وعن عالٍ من الاطُمِ »

وقد حفظهما الله من العدو بهذا الغار، لما فيه من الكفاية والاستغناء عن الدروع الكثيرة، وعن الحصون العالية ، كل ذلك ببركته صلى الله عليه وسلم

٤ – إبراء المرضى وذوى العاهات بمجرد اللمس والنفث وفى ذلك

يقول البوصيرى :

« كم أبرأت وصباً باللمس راحته وأطلقت أربا من ربقة اللمم »

أى أنه صلى الله عليه وسلم مامسح براحته الشريفة على مريض إلا عوفى،ولا على من علق به داء إلا خلصه الله تعالى منه

فمن الأول ماروى:أنه صلى الله عليه وسلم تفل فى عينى على كرم الله وجهه يوم خيبر وبه رمد شديد فبرأ من حينه ، وأنه مسح على عين قَتادة بعدما عميت فردها الله تعالى عليه،فكانت أحسن عينيه وأحدّهما نظراً،وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى

ومنها أنه عليه الصلاة والسلام أمرها على عيون رُمد فقوى أبصارها حتى أصبحت ترى مالم تره(الزرقاء)التى كانت ترى من مسيرة ثلاثة أيام وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« وأزالت بِلَمسها كُل داء أكبرته أطِبة وإساء »
« وعيون مَرَّت بها وهى رُمد فأرتها ما لم تر الزرقاء »
« وأعادت على قَتادة عيناً فهى حتى مماته النَّجلاء »

ومن الثانى ماروى: أن امرأة أتت بصبى لها به عاهة فمسح على رأسه فشفاه الله تعالى

وما روى: أن رجلاً سقط من علو فانكسرت رجله فمسحها صلى الله عليه وسلم فكأنه لم يشك قط

وهكذا من خوارق العادات التى جرت على يديه صلى الله عليه وسلم عند ماطلبت منه ، قد ونقلت بالتواتر والأخبار الصحيحة التى جاء بها الشهود العدول

فلما وجد القوم أنه صلى الله عليه وسلم قد جاء بما طلب منه من تلك المعجزات ، وخلاف النواميس الطبيعية الكونية التى لا يقدر على خرقها إلا الله تعالى، أيقنوا بتصديق الله له باجرائها على يديه عند طلبها منه ، فآمنوا به وصدقوه، واعتقدوا بعثته ورسالته صلى الله عليه وسلم

أما أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فهى كثيرة جداً ولها كتب خاصة بها فى فن الحديث

شمائله

عليه الصلاة والسلام

١ - كرم خلقه - كان صلى الله عليه وسلم على أكمل الأخلاق الكريمة وأتمها ولذا وصفه الله تعالى بذلك فقال تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران

وقال عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ولا يتممها إلا من كان كاملا فيها. ولقد فاق جميع الأنبياء فى الخلقة والسجية ولم يقاربوه فى العلم ، ولا فى الكرم ، وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« فاق النبيين فى خَلق وفى خُلق ولم يُدانوه فى علم ولا كرم »
« وكُلُّهم من رسول الله ملتمس غَرفاً من البحر أو رشفا من الدِّيم »

٢ - أمانته وصدقه : عُرف صلى الله عليه وسلم منذ نشأ بالأمانة والصدق ، وهما من أخص صفات الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، فلم يقع منه فى ذلك هفوة، ولم تحفظ عنه زلة ، حتى اشتهر فى قومه وهو

فى ريعان شبابه (بالأمين) وكانوا يودعونه ودائعهم ، ويستحفظونه أماناتهم

ولما اختلف قريش عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر الأسود حكَّموا أول داخل وذلك قبل النبوة

فقالوا : هذا محمد (هذا الأمين) قد رضيناه حكما

وقد لقى رجل أبا جهل (وهو من ألد أعداء الرسول) بعد رسالته فقال له الرجل : يا أبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا فخبرنى عن محمد صادق أم كاذب ؟

فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط

ومع ذلك لم يؤمن به أبو جهل عناداً واستكباراً، ومات مشركاً فى غزوة بدر

وسأل (هرقل ملك الروم) عنه أبا سفيان قبل أن يسلم ؛ فقال : هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال: لا

وقال (النضر بن الحارث) لقريش المكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم : قد كان محمد فيكم غلاماً حدثا ، أرضا كم فيكم ، وأصدقكم حديثا ؛ وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، وجاء كم بما جاء كم به قلتم ساحر ؟ قالوا : لا والله ، ما هو ساحر

فهذه شهادة ثلاثة من أعاظم قريش ، اتفقوا على صدقه وأمانته ، ولم

يكونوا مؤمنين به وقت هذه الشهادة كبراً وأنفةً ،والفضل ما شهدت به الأعداء

٣ – تواضعه – كان عليه الصلاة والسلام أشد الناس تواضعًا وأبعدهم من كبر ، يعود المساكين ويجالس الفقراء ، ويتفقد أحوالهم ، ويجلس بين أصحابه مختلطا بهم حيثما انتهى به المجلس جلس

روى أنه خرج على أصحابه يومًا فقاموا له ، فقال لهم : لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضًا ، وقال : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد ، وكان يقضى حاجات بيته بنفسه ويحملها بيده الشريفة إلى أهله ويقول : صاحب الشيء أحق بحمله

ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة ،فقال له :هوّن عليك فانى لست بملك ؛ إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد (اللحم المجفف)

٤ – وقاره – كان صلى الله عليه وسلم أوقر الناس فى مجلسه، لايتكلم فى غير حاجة ، ويعرض عمن يتكلم بغير جميل ، وكان ضحكه تبسما ، وكلامه قصدا ، لا فضول فيه ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيراً له واقتداء به ، مجلسه مجلس علم وحياء، وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تنتهك فيه الحرمات

وكان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فمه ، وخفض صوته ، وحمد

ربه ، ما تثاءب قط ، ويكره التثاؤب من غيره

٥ - جوده وسخاؤه

كان صلى الله عليه وسلم يعجل بالإحسان والصدقة والمعروف ، ولذلك كان أوسَعَ الخَلق صدراً ، وأطيبهم نفساً ، وكان عالى الهمم ، واسع الجود والكرم ، يعين على النوائب ، ويجيب سؤال السائل ، ويكسب المعدوم ، ولا يدخر شيئاً من يومه لغده ، وكان يجود بكل موجود ، ولذلك لما توفى كانت درعه مرهونة عند يهودى على مقدار من شعير لطعام أهله ، مع أنه قد ملك جزيرة العرب ، وحاز ملكا كبيرا ؛ ولكنه لم يقتن ديناراً ولا درهماً ، لزهده ، وعفته ، وقناعته

وكان عليه الصلاة والسلام لا يأكل إلا الطعام الغليظ ، ولا يلبس إلا الخشن من الثياب ، ومع ذلك يعطى الجزيل ، ويتجرّع مرارة الصبر على الجوع

وقد وصفه الامام علىّ كرم الله وجهه فقال :

كان أجود الناس كفاً ، وأسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجةً ، وأوفاهم ذمةً ، وألينهم عريكةً ، وأكرمهم عِشرةً ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه

ومما يؤثر عنه : أنه حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها فما ردّ سائلا حتى فرغ منها

وكان جوده صلى الله عليه وسلم كله لله ، وابتغاء مرضاته تعالى ؛ فانه كان يبذل المال تارةً لفقير أو محتاج ، وتارةً ينفقه فى سبيل الله تعالى ، وطوراً يتألف به على الاسلام حتى يقوى الاسلام باسلامه

وكان يؤثر غيره على نفسه وأولاده ، فيعطى عطاء تعجز عنه الملوك ، مثل) كسرى) (وقيصر) ويعيش فى نفسه عيشة الفقراء ، فيأتى عليه الشهر والشهران لا يوقد فى بيته نار ، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من شدة الجوع ، ليتأسّى الفقير به من غير ما سلطان لجوع

٦ ـ حسن معاشرته : كان صلى الله عليه وسلم كريم العشرة ، رءوفاً رحيماً بأصحابه ، وبهذا وصفه الله تعالى فى كتابه ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة

وكان يعطى كل واحد من جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، قد وسع الناس خلقه ، فصار لهم أباً ، وصاروا عنده فى الحق سواء

ماقهر خادماً ، وماضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله

قال أنس رضى الله عنه : خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ، ولا قال لشىء صنعته لِمَ صنعته ؟ ولا لشىء تركته لِمَ تركته ؟

فكذلك كان صلى الله عليه وسلم مع عبيده وإمائه ، ما ضرب منهم أحداً قط

وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية ، لولا التأييدات الربانية ، والعناية الالهية

وقالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا فى بيته ألين الناس ، بساماً ضحوكاً

وكان يركب الحمار ويردف خلفه ، فقد أردف بعض نسائه ، وأردف معاذ بن جبل ، وأردف أسامة بن زيد

وقد روى : أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر وأمر أصحابه باصلاح شاة فقال رجل : يا رسول الله علىّ ذبحها ، وقال آخر : علىّ سلخها ، وقال آخر : علىّ طبخها

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلىّ جمع الحطب

فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل ، فقال : علمت أنكم تكفوننى ؛ ولكن أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يكون متميزا بين أصحابه

وقد جاء وفد النجاشى فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم ، فقال أصحابه : نكفيك يارسول الله . قال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وأنا أحب أ كافئهم

ودخل الحسن والنبى صلى الله عليه وسلم يصلى فركب الحسن ظهره وهو ساجد فأبطأ فى سجوده حتى نزل الحسن ، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: لقد أطلت سجودك ، قال: إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله

٧ – حسن سياسته ـ كان ذا سياسة شريفة ، ومعارف منيفة ، ونظر ثاقب ، ورأى صائب ، وظن صادق ، وحَدْسٍ موافق ، وفضائل مشكورة ، وأخلاق محمودة ، دينه الإيمان ، وخلقه القرآن، يقبل معذرة من يعتذر إليه ، ويطلب التوبة على يديه

وإليك دليلا قاطعًا قصة كعب بن زهير وهى :

غضب كعب على بُجير أخيه حين أسلم وآمن بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ، وكتب إليه يلومه، فأعلم بُجير المصطفى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : مَن لقى منكم كعب بن زهير فليقتله . فكتب بُجير إليه يخبره بأن المصطفى أهدر دمه، فان كان لك فى نفسك حاجة فصر إليه فانه يقبل من جاء تائبًا ، ولا يطالبه بما عمله قبل الاسلام

فلما بلغ الكتاب كعبًا فرّ إلى قبيلة لتجيره، فأبت عليه ذلك ، فأشفق على نفسه ، وأرجف به أعداؤه، فقدم المدينة ونزل على سيدنا ومولانا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فأتى به إلى المسجد وقال : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقم إليه واستأمنه ، فسمع كلامه وقام إليه حتى جلس بين يديه ، فوضع يده فى يده قائلا : يا رسول الله إن

(كعب بن زهير) قد جاء يستأمنك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ذلك إن أنا جئتك به ؟ قال : نعم . قال : أنا يارسول الله (كعب بن زهير)

فقال عليه الصلاة والسلام : الذى يقول مايقول ؟ ووثب إليه رجل من الأنصار فقال : يارسول الله دعنى وعدوّ الله أضرب عنقه

فقال له الرسول : دعه عنك فانه قد جاء تائباً نازعاً

ثم أخذ كعب فى انشاد قصيدته المشهورة « بانت سعاد » يمدح فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويذكر خوفه ، وارجاف الوشاة به قائلا :

« إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول »

إلى أن قال :

« أنبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول »

« لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت فىّ الاقاويل »

فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بردته الشريفة عليه ، وعفا عنه

وكان صلى الله عليه وسلم يباسط أصحابه

وكان رجل يسمى زهيراً يهادى النبى صلى الله عليه وسلم بموجود البادية بما يستطرف منها

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يهاديه ، ويكافأه بموجود الحاضرة وبما يستطرف منها

وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يقول : زهير باديتنا ، ونحن حاضرته

ولقد جاء إلى السوق يوماً فوجد زهيراً قائماً من قِبَل ظهره وضمه بيده إلى صدره، فأحسَّ زهيراً أنه الرسول، فجعل يمسح ظهره فى صدره رجاء بركته، فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: مَن يشترى العبد؟ فقال زهير: إذاً تجدنى كاسداً

فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: أنت عند الله غال

وكان عليه الصلاة والسلام يمزح، ولا يقول إلاَّ حقًّا، فمن ذلك أن جاء له رجل فيه بَلَه فقال: يارسول الله احملنى

فقال: أحملك على ابن الناقة

فقال: ما عسى يغنى عنى ابن الناقة؟ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: وَيحكَ وهل يلد الجمل إلا الناقة؟

وجاءت عجوز إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فقالت: يارسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة

فقال: ياأم فلان، إن الجنة لا تدخلها عجوز. فولَّت تبكى

فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز، إن الله يقول:

﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ الواقعة

وصفوة القول: أنه كان صلى الله عليه وسلم أجمل الناس وداً، وأحسنهم وفاء وعهداً، وأكثرهم تواضعاً، وأجزلهم عفةً وصيانةً، وأصدقهم لهجةً، وأغزرهم فضلاً وإحساناً

٨ - شجاعته - أما الشجاعة والنجدة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم منهما بالمكان الأعلى الذى لا يجهل ، حضر المواقف الصعبة ، وفرّ الكماة والأبطال عنه ، وهو ثابت لم يبرح ، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح قال على رضى الله عنه : ما هو إلاّ شجاعة ونجدة ، إنا كنا إذا اشتد البأس ،واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أقرب إلى العدو منه

سمع أهل المدينة ذات ليلة صراخاً مزعجاً ففزعوا، وخرجوا ليستطلعوا الخبر، فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم راجعاً من جهة الصوت ، وكان قد سبقهم إليه على فرس عُرى (لا سرج عليه) متقلداً سيفه وطمأنهم قائلا لهم : لن تراعوا (أى لا تخافوا)

وعرف عليه الصلاة والسلام بأنه فى جميع غزواته كان ثابتاً فى مكانه وجهاده ، حتى عاد المؤمنون وانتصروا على أعدائهم المشركين

٩ - صبره وثباته وصدق عزيمته. قد اتصف صلى الله عليه وسلم بالصبر، وشدة الاحتمال،فكان لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى اسراف الجاهل إلاّ حلماً ، لقى فى سبيل الله تعالى الشدائد ، وتعرض للمكاره ، وهو لا يزداد إلاّ ثباتاً ومضاء وإقداماً

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« لا تحل البأساء منه عرى الصبـر ولا تستخفه السراء »

طلب كفار قريش إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يكف عن الدعوة إلى الاسلام ، وهددوه بالقتل ، ونصح له عمه أبو طالب بأن يوافقهم على ما طلبوا، فلم يقبل

وقال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه »

ولقى صلى الله عليه وسلم من ضروب الايذاء والاهانة من العرب شيئاً كثيراً كما مرّ ذكره،ولم يحد عن مبدئه؛ بل كان صلى الله عليه وسلم مثال الثبات،وصدق العزيمة

١٠ — شفقته ورأفته — كان عليه الصلاة والسلام شفيقا رءوفا ، فمن أمثال شفقته أنه وجد عليه الصلاة والسلام هرّة عطشى فأمال لها الاناء حتى شربت

وركبت زوجه السيدة عائشة رضى الله عنها جملاً وصارت تحثه على الاسراع فى السير ، فقال لها عليه السلام : عليك بالرفق

ويكفى فى ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة

١١ — حلمه وعفوه عمن أساء إليه . آذاه المشركون يوم أحد، وشجوا وجهه وكسروا رباعيته، فقال له أصحابه : لو دعوت عليهم ؛ فقال إنى

لم أبعث لعّاناً؛ ولكن بعثت داعياً ورحمةً ، اللّهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون

آذاه المشركون من قريشٍ ،فأخرجوه من دياره وقاتلوه ، فلما فتح مكة عفا عنهم تفضلاً منه ورحمة ، وما زاد على أن قال لهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً (أخ كريم ، وابن أخ كريم)

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء

وفى ذلك يقول البوصيرى رحمه الله :

« جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دَأْبُهُ الإغضاء »

« وسع العالمين علماً وحلماً فهو بحر لم تعيه الاعياء »

ولا شك أن هذا منتهى الحلم والعفو عند المقدرة

لقد أراد بعض أعدائه أن يفتك به، فتصدى له وهو قائل وحده (نائم) فى ظل شجرة وقت الظهر ، فلم ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاَّ والرجل قائم والسيف مصلت فى يده فقال : من يمنعك منى ؟ قال : الله ! فسقط السيف من يده ، فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم وقال : مَن يمنعك منى ؟ قال : كُن خَير آخذ ، فتركه وعفا عنه

فرجع الرجل إلى قومه فقال لهم : جئتكم من عند خير الناس

١٢ ـ حسن معاملته ـ بُعث النبى صلى الله عليه وسلم فى قوم متنافرين متباغضين ، كالوحوش الضارية فى طباعهم الخشنة، فاحتمل

جفوتهم ، وصبر على أذاهم ، وقابل إساءتهم بالاحسان إلى أن انقادوا إليه وأحبوه أكثر من أنفسهم وأبنائهم ، وهجروا فى رضاه أوطانهم ، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله وتركوه، كما قال الله تعالى له :

﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران

كان صلى الله عليه وسلم يزور أصحابه، ويعود المرضى منهم، ولا يرد دعوة من يدعوه ، وما سئل فى شىء قط فمنعه، ولا يأنف أن يمشى مع الفقير والمسكين، ويجلس مع المساكين وكان يقول :

« اللّهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى زمرة المساكين »

وعلى الجملة فقد كان صلى الله عليه وسلم مثالاً كاملاً للصفات الحميدة، والأخلاق الفاضلة، فهو رغم أنف كل معاند قوّال، نبى الرحمة ، وبحر الحكمة ، وإمام الهدى ، وعين الكمال

أما صفاته الخلقية ـ فكان صلى الله عليه وسلم حسن الجسم ، معتدل الخَلق ، متناسب الأعضاء سميناً سمناً متناسباً ، ليس بالطويل ولا بالقصير، عظيم الرأس ، سهل الخدين ، فى وجهه طول مع استدارة ، يتلألأ تلألؤ القمر ليلة التمام ، أبيض مشرباً بحمرة ، وأحسن وأصدق وصف للنبى ما قالته (أم مَعْبَد) العربية فى وصفه مع أنها ما كانت تعلم من أمره شيئاً

كلام أم معبد تصف النبي

صلى الله عليه وسلم

مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ الصِّدِّيقُ فِي هِجْرَتِهِمَا بِخَيْمَةِ أُمِّ مَعْبَدٍ، فَرَأَى شَاةً أَضْعَفَهَا الْهُزَالُ، فَاسْتَأْذَنَهَا أَنْ يَحْلُبَهَا فَأَذِنَتْ فَسَمَّى اللهَ وَدَعَا وَحَلَبَهَا فَدَرَّتْ فَمَلأَ إِنَاءً وَسَقَاهَا وَسَقَى الصِّدِّيقَ ثُمَّ شَرِبَ بَعْدَهُمَا، ثُمَّ مَلأَ الْإِنَاءَ ثَانِياً وَارْتَحَلا فَأَقْبَلَ أَبُو مَعْبَدٍ يَسُوقُ أَعْنُزاً عِجَافاً يَتَسَاوَكْنَ هُزَالاً، فَقَالَ مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا وَلَا حَلُوبَةَ فِي الْبَيْتِ؟ فَقَالَتْ مَرَّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ وَذَكَرَتْ قِصَّتَهُ فَقَالَ صِفِيهِ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ (١)، وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ (٢)، وَسِيمٌ (٣) قَسِيمٌ (٤)، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ (٥)، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ (٦)، وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ (٧)، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ (٨)، أَحْوَرُ (٩) أَكْحَلُ (١٠)

---

(١) ثجلة: عظم البطن (٢) صعلة: دقة الرأس والعنق (٣) وسيم: حسن الوجه (٤) قسيم: معتدل (٥) دعج: سعة سواد العين (٦) وطف: كثرة الشعر (٧) صحل: خشونة (٨) سطع: طول (٩) أحور: شديد بياض العين وسوادها (١٠) أكحل: كأن بعينه كحل

أَزَجُّ (١) أَقْرَنُ (٢) ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ ، إِذَا صَمَتَ عَلَاهُ الْوَقَارُ ، وَإِنْ تَكَلَّمَ عَلَاهُ الْبَهَاءُ ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُمْ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأَحْسَنُهُمْ وَأَحْلَاهُمْ مِنْ قَرِيبٍ ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ فَصْلٌ (٣) ، لَا نَزْرٌ (٤) وَلَا هَذْرٌ (٥) ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ ، رَبْعَةٌ (٦) لَا تَقْتَحِمُهُ (٧) عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ ، وَلَا تَشْنَؤُهُ (٨) مِنْ طُولٍ ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ ، فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا ، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ ، إِذَا قَالَ اسْتَمَعُوا لِقَوْلِهِ ، وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ ، مَحْفُودٌ (٩) مَحْشُودٌ (١٠) ، لَا عَابِسٌ (١١) وَلَا مُفَنَّدٌ (١٢). قَالَ أَبُو مَعْبَدٍ لَنَتَّبِعَنَّهُ ، فَلَحِقَا بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسْلَمَا

---

(١) أزج : رقيق الحاجب (٢) أقرن : مقرون الحاجبين (٣) فصل : بين بليغ (٤) لا نزر : لاقليل (٥) ولاهذر : لا كثير باطل (٦) ربعة لاطويل ولا قصير (٧) لا تقحمه عين : لاتحتقره ولاتزدريه (٨) لاتشنؤه : لا تبغضه (٩) محفود : مخدوم بسرعة (١٠) محشود : مطاع يخف الناس لخدمته (١١) لاعابس: غير مقطب الوجه (١٢) لا مفند : لايفند ، ولا يكذب رأيه

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : مارأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأن الشمس تجرى فى وجهه ، ولا رأيت أحداً أسرع مشية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا وانه لغير مكترث ؛ بل يمشى على هينة فيقطع من غير جهد مالا نقطعه بالجهد

وقال الشاعر الشهير حسان بن ثابت فى وصفه صلى الله عليه وسلم

«وأحسنَ منك لم تر قط عينى وأجملَ منك لم تلد النساء»

«خُلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء»

وقال البوصيرى فى وصف محمد صلى الله عليه وسلم :

« رحمةٌ كله وحزم وعزم ووقار وعصمة وضياء »

« لاتحل البأساء منه عرى الصبـ ـر ولا تستخفه السراء »

« كرمت نفسه فما يخطر السو ء على قلبه ولا الفحشاء »

وقال أحد الشعراء حثاً على اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام :

« يامن يريد نجاته يوم الحسا ب من الجحيم وموقد النيران »

«اتبع رسول الله فى الأقوال والـ أعمال لا تخرج عن القرآن »

« فالربُّ رب واحد وكتابه حقٌّ وفهم الحق منه دان »

« ورسوله قد أوضح الحق المبيـ ن بغاية الايضاح والتبيان »

وقدمدحه أحد الشعراء الأفاضل فى قصيدة له فقال :

«نبيّ قد رأى مولاه جهراً وحسن سناه يزرى بالهلال»
«وتمم للمكارم فهو حقًا كمال فى كمال فى كمال»
«أتى والجاهلية فى شقاء وجلّ القوم يرتع فى ضلال»
«فبدّد شملهم وحظى بنصر وأظهر للملا خير الفعال»
«وأعطاه المهيمن ماتمنّى وأيّده بأبطال الرجال»
«فأضحت ملة الاسلام تعلو بتعضيد الصحابة خير آل»
«فكونوا مثلهم يا قوم تحظوا وتكتسبوا غداً شرف المعالى»
«وتكرار الصلاة على التهامى كذا صحب ذوو الهمم العوالى»
«ووفقنا لما يرضيك ربى وكمل فى الختام نجاح حالى»

الخاتمة

ونختم سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام بشهادة أحد المسيحيين
بأنه أعظم رجل فى العالم، والفضل ماشهدت به الأعداء

اقترحت جريدة الوطن البيروتية، وصاحبها مسيحى، على قرائها بأن يكتبوا اليها آراءهم فى أعظم رجل ظهر فى العالم، ولماذا ؟

فأجابها كاتب من أحرار الطائفة المسيحيه قائلا :

أعظم رجال العالم على الاطلاق رجل وضع فى عشر سنين دينا وفلسفةً، وشريعة اجتماعية، وقوانين مدنية، وغيَّر شريعة الحرب، وأنشأ أمّة ودولة، طاولت الدهر، وكان أميًّا ذلك هو (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشى العربى نبىّ المسلمين)

وقد تدارك النبى لمشروعه العظيم كل حاجاته، فوفر لأمته ولتابعيه وللملك الذى أنشأه أسباب الانتشار والخلود، بحيث اذا انقطع المسلم الى القرآن والحديث وجد فيهما مايهمه من أمور دينه ودنياه

وجعل للمسلمين مؤتمرا يعقد كل عام فى مكة، ومَن تنبه الى فرض الحج على من يملك الراحلة والنفقة واسقاطه عمن لايملكها، أدرك أن الغاية من الحج اجتماع الموسرين والوجوه من الأمة للبحث فى شؤون جامعتهم وأمور سياستها واجتماعها وتعاونها

وتدارك أمر الفقير بالزكاة المفروضة على كل مسلم ، بحيث إذا أدّاها المسلمون على حقها لم يبق فى الأمة فقير

وجعل نواة أبدية للاسلام بكون القرآن كتاباً عربيا يتحتم على كل مسلم أن يتفهمه بلغة العرب ، واذا لم يكن فى هذا غير أن فهم العربية حتم على كل عالم وإمام لكفى به جامعة لسان للمسلمين

ومهد طريق النبوغ لأفراد الأمة بكون المسلم لايفضل المسلم الا بالتقوى ، فكان الاسلام جمهورية حقيقية

وسهل اعتناق الاسلام لغير العرب بقوله : لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى

ويسّر لغير المسلمين العيش برخاء فى بلاد الاسلام بقوله : الخلق كلهم عيال الله فأحبهم اليه أنفعهم لعياله

ونظر فى أمر العائلة فرتب أمور الزواج ، والتناسل ، والتوارث ، ورفع من شأن المرأة

وعاد الى الأمور المدنية فوضع قوانين وقضاة للنظر فى شئون الأفراد

ولم يهمل مالية الدولة ؛ بل وضع لها سنناً لبيت المال

وكان للعالم من همه نصيب وافر ، فجعل الحكمة ضالة المؤمن

وأوصاهم بأن يطلبوا العلم ولو فى الصين ، فكان لهذه الرجعة شىء

عظيم فى اقتباس المسلمين العلم من كل أبوابه وازدهاره فى أيامهم

أفلا يكون الذى فعل كل هذا أعظم رجل ظهر فى العالم ؟

« نقلا عن مجلة المنار »

***

وختاما أقول: اللّهم إنّا نسألك أن توفق جميع المسلمين الى الاعتصام بهدى هذا النبى الأمين ، وأن تصلح لهم أمور الدنيا والدين ، إنك على ما تشاء قدير ، و بالاجابة جدير ؟

السيد على فكرى

ابن المرحوم

السيد محمد عبد الله

منظومة

فى ذكر الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام

للشيخ محمد الدمنهورى من علماء القرن الثالث عشر طبع مصر سنة ١٣٠٦

«ألاَ أن إيمانا برسل تحتما — وهم آدم إدريس نوح على الولا»
«وهود وصالح لوط مع إبراهيم أتى — كذا نجله أسماعيل إسحاق فضلا»
«ويعقوب يوسف ثم يتلو شعيبهم — وهارون مع موسى وداود ذو العلا»
«سليمان أيوب وذو الكفل يونس — والياس أيضا واليسع ذاك فاعقلا»
«كذا زكريا ثم يحيى غلامه — وعيسى وطه خاتما قد تكملا»
«وقد تم نظمى جمع رسل مرتبا — لهم حسب ارسال كما قاله الملا»
«عليهم صلاة الله ثم سلامه — يدومان مادام الأراضى وماعلا»

انتهى بحمد الله ومعونته الجزء الثانى من قصص الأنبياء فى يوم
الخميس ١٩ محرم سنة ١٣٥٣ - ٣ مايو سنة ١٩٣٤

فهرس

تم ولله الحمد من قبل ومن بعد
والصلاة والسلام على خير الأنام
فى المبدأ والختام